الفصل الرابع

الخليفة والقدوة

[إنما أُعطيكم ما تُرزَءون لا ما
تَرْزَءون . . .]

« الرسول »

كلما تعاظمت مسئولياته ، تألقت فضائله ومزاياه .

وتلك أصدق دلائل العظمة الإنسانية ، وأوثق براهينها . .

فحيث تثقل المسئوليات كالجبال . . وحيث تفرض خلال احتدامها وجيشانها توتُّراً قاسياً على الإرادة والفكر ، تجد الفضائل الطارئة فرصتها للانكماش والتقهقر . أما الفضائل الأصيلة الجليلة فلا شيء يشحَذُ تفوقها وأقتدارها مثل هذا المجال ! !

* * *

ولقد كُتب على « ابن أبي طالب » أن تكون حياته موكباً موصولاً من المسئوليات الجسام .

أكانت أقداره تُحابيه بهذا ؛ لتجعل حياته عرضاً مستمرًّا لفضائله المتألقة ، وعظمته السامقة . . ؟

إن إحساسه ، وإن إيمانه بالمسئولية لعجيبان !

ولكن العجب يفقد مكانه ، مادامت الأقدار قد جعلت منه ابن

عمَّ الرسول وصهره وتلميذه الأول . .

فمن يَكُ مكانه من الرسول هذا المكان ، فإن عليه أن يُعطى ، ولا يأخذ . . وأن يَغْرَم ، ولا يَغْنَمُ . .

عليه أن يهيئ نفسه لِشظفِ العيش ، ولأواء الحياة . .

أما مناعمها ، ومباهجُها ، بل مجرد الراحة فيها ، فأشياء لا تنبغى لمحمد ، ولا لآل محمد . . ! !

تلك قضية وعاها « على » جيداً ، فيما وعى . .

وابنُ عم الرسول وتلميذه ، خير من يضع إرادته وسلوكه فى خدمة الحق الذى يَعيه .

إنه بغير تكلُّف ، وبغير إعمال أو محاولَة . يجد طاقاته جميعاً تبلغ أوْج احتشادها واكتمالها ، كلما بلغت الأخطار والتبعات ذروة تجمُّعها وتحدِّياتها .

وإنه بغير تكلف ، وبغير إعمال أو محاولة كذلك ، يجد فضائله جميعاً تحلِّق فى ذُرى جلالها وسموها عند الخطر ؛ لترسم لمقدرته ولبطولته أسلوب العمل ! !

هكذا تعلم من « محمد » ابن عمه وكافِله . .

وهكذا تعلم من « الرسول » مُعلِّمه وهاديه . .

فلقد رآه عندما بلغ الخطر به وبعمه أبى طالب ، غايته الماحقة ، تتقدم فضيلة الصُّمود فى جلالها المهيب فتقهر الخطر ، وتعبر عن نفسها فى هذه الكلمات :

[واللهِ ، لو وضعوا الشمس فى يمينى

والقمر فى يسارى ، ما تركتُ هذا
الأمر حتى يظهره الله أو أهلِك دُونه] . .

ثم رآه يوم الفتح ، وقد تعلّقت مصاير قريش كلها بكلمة واحدة تنفرج عنها ثناياه ، فإذا فضيلة الصَّفح تتقدم فى أنْسها الرَّحيب وحنانها الرَّطيب ؛ لتقول للقتلة الذين جوَّعوا أهله ، وقتلوا أصحابه ، ومضغوا كَبِد عمه بعد أن مثَّلوا بجثمانه الطهور أبشع تمثيل .

[اذهبوا ،
فأَنْتُمُ الطُّلَقَاء] . ! ! !

* * *

ليس هناك خطر مهما عَظُم ، يستطيع أن يُقاعِس الفضائل الرفيعة عن دَوْرها فى توجيه الكفاية والبطولة .

وليس هناك فى كل مفاتن الدنيا ما يستطيع أن يفتن الرجل العظيم العادل عن مسئولياته العظيمة العادلة . .

هذا هو الدرس الذى حَذِقَه « على » عن الرسول ووعاه . .

يُضاف إليه ، بوصفه من آل بيت الرسول ما ذكرنا من قبل وهو : أن يُباشر مسئولياته ، ويحيا جميع حياته وسط دائرة صارمة من الزهادة ، والشظَف . .

ليس له فى طيباتها المشروعة ، ولا فى مناعمها الحلال حظ أونصيب ! !

عرف ذلك من قول الرسول ومن عمله وسلوكه معرفة لا تحتاج إلى مَزيد .

عرفه حين كان يراه يضنُّ على نفسه بشربة لبن . . ثم يرسلها لفقير من المسلمين . . !

وعرفه ، يوم أرسل إليه زوجته « فاطمة » بنت الرسول تسأله حقاً يسيراً ناله جميع المسلمين ، فإذا هو يجيبها ودموع الوالد الحنون تملأ عينيه :

[لا ، يافاطمة . .
لا أُعطيكِ وأدعُ فقراء المسلمين] !

وعرفه ، حين رأى عمه « العباس » يسأل الرسول ولاية ، هُو لها أهل وبها جدير ؛ فإذا الرسول يجيبه فى أسف :

[إنّا والله يا عَمِّ ، لا نُولِّى هـــذا الأمر أحداً يسأله ، أوأحداً يحرص عليه] ! !

وعرفه أكثر وأكثر ، يوم فتح مكَّة ، حين حمل « علىٌّ » مفتاح الكعبة ، وتوجه تلقاء الرسول وهوجالس وسط أصحابه فى المسجد الحرام وقاله له :

[يا رسول الله . .
اجعل لنا الحجابة مع السّقاية صلى اللهُ عليك] .

فإذا الرسول يبسط إليه يَمينه ، ويأخذ منه مفتاح الكعبة ثم ينادى : (أين عثمان بن طلحة) ؟ . . وكانت وظيفة حجابة البيت الحرام معه ومع أسرته من قبل . .

حتى إذا نهض عثمان بن طلحة قائماً ، أدْناه الرسول منه ، ووضع

مفتاح الكعبة فى يده وقال له :

[هَاكَ مفتاحَك يا عثمان اليوم يوم بِرٍّ ووفاء . . ! !]

ثم يلتفت صوب ابن عمه عَلِىّ ويقول له :

[إنما أُعْطِيكم ما تُرْزَءُون لا ما تَرزَءُون] . . ! !

أى أن حظكم فى هذه الحياة الدنيا ، المسئولية مع الشَّظَف . . لا شىء دون ذلك ، ولا شىء فوق ذلك . .

أما بقيَّة الدنيا ، من منصب ، أوجاه ، أومال فلا ينبغى لكم أن تُنافسوا فى شىء من ذلك أحداً ، ولا أن تَرْزَءُوا فيه مخلوقاً ! !

هل هناك حاجة إلى مزيد من البيان لكى يعرف « على » طبيعة وحقيقة دوره فى الحياة . . !

لا . .

وإن القضية لواضحة كالنّهار .

وتلك هى :

[إنما أُعطِيكم مـا تَرْزَءُون لا ما تَـرْزَءُون] . . ! !

عليه – إذن – أن يحمل مسئولياته كلها فوق كاهله الشجاع ، ويمضى . .

وعليه – إذن ، ألا ينتظر من الدنيا جزاءً ولا ينتظر منها شكوراً . . فليس لآل محمد فيها سوى أن يُعطوا . . أما أن يأخذوا فلا . .

إن الدنيا لأهْوَنُ على الله من أن تكون لهم مثوبةً وجزاء . .

وليس هناك من آل بيت النبي من أدرك هذه الحقيقة وآمن بها مثل الإمام على . .

بل لقد أدرك أيضاً ، أن طيبات الحياة التي يجد فيها الآخرون أفراحاً ومسرَّات . . تتحوَّل حين تلقيها المقادير على آل البيت إلى رُزْءٍ ومشقة ! !

ذلك لأنهم لا يبحثون خلال هذه الطيبات عن المنفعة والمُتْعة ، بل عن الواجب والتَّبعة .

ومن آل البيت كذلك ، لانجد أحداً يفوق « علياً » رضى الله عنه فى السير بحياته وفَق هذا الإدراك . .

فحين جاءته الخلافة . . خلافَةُ أعظم دول الأرض يومئذ نفوذاً وسيادة . . كانت هذه الخلافة التى يسيل لِتَبوُّئها لُعاب الملوك ، رُزْءًا أصاب الإمام . .

ولو شاء لجعلها مصدر نعيم لا ينتهى ، ومسرَّات لا تسكت طبولها . .

ولكن ، لأنها تحوَّلت بين يديه إلى مسئولية يُمارسها ضمير بلغ الكمال فى ورعه ، واستقامته ، وفى تقواه وصرامته . . آنئذ لم تعد الخلافة مع « الإمام العظيم » أكثر من رُزء ، يحمله فى جَلد الصابرين الغارمين . . لا فى نشوة الفرحين الغانمين . . ! !

* * *

إن المسئولية وحدها هى التى تعنيه . .

وموضوع المسئولية – أيَّة مسئولية – هو الحق ، ولاشىء سواه . .

فإذا رأى الحق ، حمل مسئوليته عنه من فوره ، وإذا حمل مسئولية ما ،

فإن العواقب لا تدخل فى حسابه أبداً . .

* * *

وهذا يفسر لنا موقفه من الخلافة ، منذ انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى – إلى أن لحق هو بهذا الرفيق .

فعندما بويع « الصديق أبو بكر » رضى الله عنه بالخلافة استأخَرت يمين « الإمام على » كرم الله وجهه عن البيعة . .

لماذا . . ؟

لقد أعطى هو السبب فى وضوح خلال حواره مع الصحابة ، وعَلى رأسهم أبو بكر وعمر فقال :

[إنكم تدفعون آل محمد عن مقامه ومقامهم فى الناس ، وتنكرون عليهم حقهم .

أمَا والله لنحنُ أحق منكم بالأمر مادام فينا القارئ لكتاب الله . . الفقيه فى دين الله . . العالم بسنن رسول الله . . المضطلع بأمر الرعية . . القاسم بينهم بالسويّة] . .

فهو – إذن – يرى ، بل يعتقد أنه ما دام الرسول عليه السلام لم يعهد بالخلافة لأحد بذاته ، فإن البيت الذى اختارته السماء ليكون منه النبى المصطفى ، هو البيت الذى يختار منه المسلمون خليفتهم ، مادام فى رجال هذا البيت من يتمتع بالكفاية الكاملة لشغل منصب الخلافة .

أجل ، فليس الانتماء لبيت النبوة هو وحده مبرر هذا الترشيح . بل لا بد قبل ذلك من الكفاءة الكاملة التى تتمثل فى الطاعة المطلقة لله ، ولكتابه ، ولرسوله ، وفى الاضطلاع القويم بأمر المسلمين . .

هكذا قال الإمام :

[. . ما دام فينا القارئ لكتاب الله
« الفقيه فى دين الله . .
« العالم بسنن رسول الله . .
« المضطلع بأمر الرعية . .
« القاسم بينهم بالسّويّة . .]

* * *

ولسنا هنا بصدد مناقشة رأى « الإمام » فى خلافة « الصِّديق » رضى الله عنهما .

ولكننا نقرر عن يقين ، أن الإمام فى موقفه ذاك لم يكن مدفوعاً برغبته الشخصية فى منصب الخلافة ، ولم يكن ينفس على « أبى بكر » هذا المنصب .

إنما كان يدافع عن حق رآه واعتقده . . ولم يكن بالنسبة له موضع ريب أو شك .

فعندما اجتمع المسلمون فى « سقيفة بنى ساعدة » ، ورأى الأنصار أن يكون الخليفة منهم . . فى حين رأى المهاجرون أنهم أحق وأولى . كان بعض منطق المهاجرين الذى رجَّح كفتهم ، قولهم للأنصار : إن رسول الله كان منا نحن المهاجرين ، فلتبق الخلافة فى أهل الهجرة !

فهذه الحجة نفسها كانت بعض منطق الإمام . .

فإذا استحق المهاجرون منصب الخلافة ، لأن الرسول منهم . . فآل بيت النبي أحق بها ، لأن النبي منهم . هكذا فكّر الإمام . .

ولكن من الخير لنا ألاّ يفتننا الشكل الخارجى لهذا الخلاف عن جوهره وحقيقته .

فأصحاب النبي الكبار بإيمانهم وبتقواهم من أمثال أبى بكر ، وعمر ، وعلى وعثمان ، لا يتنافسون مغنماً من مغانم الدنيا مهما عظُم ، لا سيَّما فى ذلك الوقت حيث كانت فجيعتهم بموت نبيهم لا تترك فى أنفسهم المفعمة بالأسى مكاناً لأىٍّ من رغبات الحياة . .

وإنما يرجع استمساك كل منهم بموقفه إلى أن كلا منهم وقف إلى جانب اقتناعه ، وما اعتقد أنه الحق . .

ثم إن الخلافة ، وإن تكن فى شكلها الخارجى تشكل سلطة سياسة ، ومنصباً دنيوياً ، إلا أنها فى أفئدتهم وفى إدراكهم الحقيقى لها ، لم تكن سوى وظيفة من أسمى وظائف الهداية ، والقُدوة . . وفى مثل هذا لا جَرَم أن يتنافس المتنافسون .

إن كل وقائع التاريخ وحقائقه تؤكد فى غير لبس أن أبا بكر ، وعمر ، وعلى — هؤلاء الثلاثة بالذات ، لم يكونوا يرون فى منصب الخلافة سوى عبء فادح مُبْهِظ ، ولولا أن الهروب منه خيانة لله ولرسوله وللمسلمين ، لجعلوا بينهم وبينه بُعد المشرقَيْن . .

فلا الطموح الشخصى ولا الرغبة فى النفوذ والسلطة ، كان لهما أو لإحدهما مكان بين دوافع ذلك الخلاف .

كان الفريق الذى آثر اختيار أبى بكر ، ينظر إلى سابقته فى الإسلام ، وإلى سنِّه وحكمته وخبرته ، وإلى ذلك الإيمان المعجز الذى حمله قلبُ رجل جعل شعار حياته كلها مع رسول الله :

[إنْ كان قال ، فقد صَدق] ! !

كانت المزايا التى تدعوها لاختيار « أبى بكر » تملأ الأفق ألَقاً ، ومجداً ، وعبيراً . .

وهى مزايا لم ينكرها « الإمام العظيم على » لحظةً من نهار .

ولقد جهَر بها ، وهو يُبايع « الصِّديق » فيما بعد فقال :

[يا أبا بكر . .

« إنه لم يمنعنا من أن نضايعك إنكار
لفضلك ، ولا نفاسةٌ عليك لخير
ساقه الله إليك . .
ولكنا كنا نرى أن لنا فى هذا الأمر
حقاً أخذتموه] .

كما عبرَّ عن هذه المزايا تعبيراً أجمع وأروع حين وقف يرثى « أبا بكر » بعد وفاته ، فيقول :

[رَحمكَ الله أبا بكر . .

« كُنتَ والله أوَّل القوم إسلاماً . .

« وأخلَصَهم إيماناً . .

« وأشدَّهم يقيناً . .

« صدَّقتَ رسول الله حين كذبه الناس

« وواسَيْتَه حين بخلوا . .
« وقمت معه حين قعدوا . .
« كنت والله للإسلام حِصْناً ،
« وللكافرين نِاكباً . .
« لم تَهِنْ حجَّتُك . .
« ولم تضعُف بصيرتك . .
« ولم تَجْبن نفسك . .
« كنت والله كما قال الرسول فيك .
« ضعيفاً فى بدَنك . .
« قوياً فى دينك . .
« متواضعاً فى نفسك . .
« فلا حَرمنا الله أجرَك . .
« ولا أضلَّنا بعدك] . . ! !

أجل ، كان الرجلان اللذان تحرَّك بينهما « بندول » الاختيار بُعيد وفاة الرسول من طراز رفيع ، رفيع ، رفيع . .

وكان الرجل الثالث الذى لعب الدور الأول فى اختيار أبى بكر فى نفس المقام من الرفعة والعظمة . .

ويكفى أن يُذكر اسمُ أىٍّ منهم « أبو بكر » أو « عمر » . . أو « على » . . حتى تتفتح الأبواب عن عالم من الفضائل والرفعة والتُّقى ، ليس له نظير ! !

ولقد سعى « أبو سفيان » إلى « الإمام على » أكثر من مرة يحضه على الاستمساك بحقه فى الخلافة ويقول :

– إن شئتَ لأملأنَّها عليهم خيلاً ورجلاً ، ولأسدَّنَّها عليهم من أقطارها .

ولكن الإمام الزاهد ، الورِع ، الفاهم ، يردّه فى كل مرة ويَدْحَضُه :

[يا أبا حَنْظَلة . .
إنك تدعونا لأمر ليس من أخلاقنا
ولا من شِيَمنا . .
ولقد سددتُ دونها باباً ، وطويت
عنها كَشْحاً] .

* * *

أجَل . . فاختلاف وجهات نظر الأبرار حول الحق . لا يُخرج الأبرار من دائرة الحق ، والفضل ، والأمانة . .

إن خلافهم ليس على دنيا يتنافسونها ، ومن ثمَّ تبقى آفات الدنيا بعيدة عن إيمانهم وعن أخلاقهم ، وتبقى بعيدة عما يختلفون فيه ، بُعدها عما يتفقون عليه . ! !

وهكذا طوى – الإمام – عنها كَشحاً ، وأغلَق دونها باباً ، وتفرَّغ لعبادة الله وتفقيه المسلمين ، وإسداء المشورة والنصح لولىِّ الأمر . .

فالمشكلات كلها ، والمعضلات جميعها لم يكن لها إلاَّ علىّ . .

ولطالما كان الخليفة « أبو بكر » يسعى إليه ويقول له :

[أفْتِنَا يا أبا الحسن] . . ! !

ولطالما كان الخليفة « عمر » يستنجد بفقهه وبذكائه وببصيرته ، ثم يقول :

[لولا عَلِيٌّ ، لَهَلَكَ عُمر] . . ! !

ولطالما كان الخليفة « عثمان » يَأرِزُ إليه ، ويستعين به ويستنصحه ، لكنْ عندما أوْغَلَت الحاشية المحيطة به فى الأمر ، استطاعت للأسف أن تفسد ذات بينهما ، فلم يُقدَّر لنصح الإمام ولمشوراته الأمينة العادلة أن تبلغ من اهتمام الخليفة ما تستحقه .

وباستشهاد الخليفة « عثمان » دُعى « الإمام على » ليتسلم الرُّزْءَ الكبير – منصب الخلافة . . ! !

وهكذا جاءته أخيراً . . مُثخنةً بالجراح ، مُثقلة بالمتاعب ، معبَّأةً بالعواصف . . ! !

حقاً ، إن « آل محمد » ليس لهم من حظوظ الدنيا إلا ما يُرزَءُون ! !

* * *

فى أواخر عهد « عثمان » رضى الله عنه ، لعبت أهواء نفر من بنى أمية بمصاير الدولة وبمقاديرها لَعباً أفضى آخر الأمر إلى فتنة مسلحة تنادى لها أصحابها من شتىّ أقطار الإسلام ، واستغلها على نطاق واسع أعداء الدين الجديد الذين هدّم عالَمهم القديم كله ، وقضى على مصالحهم وضلالهم . .

وبلغت الفتنة فى جولتها الأولى غاية احتدامها وظلامها بمقتل الخليفة « عثمان » .

ولسنا الآن بصدد الحديث عن وقائع تلك الأحداث الرهيبة فسيكون مجال ذلك فى كتابنا القادم إن شاء الله عن « عثمان » رضى الله عنه وعن أصحاب رسول الله أجمعين .

أما هُنا ، فسنكتفى برؤية الظروف الحالكة التى حمل فيها

« أمير المؤمنين على » كرم الله وجهه تبعة الحكم ، ومسئولية الخلافة . .

لقد قصده الثوار إثر فراغهم من اقتراف جريمتهم النكراء .

قصدوه وأيديهم لم يجفّ منها دم الخليفة الشهيد الذى اغتالوه فى بشاعة مفزعة .

ورفض « الإمام » بعد أن ألقى عليهم من تقريعه ووعيده ما جعلهم وهم فى بأسهم المتقد يتقامئون ، ويتخاذلون ، وينصرفون عنه فى خزى وهوان . !

ذهبوا إلى « طلحة » فرفض . وإلى « الزُّبيرْ » فرفض . .وإلى « عبد الله ابن عمر » فرفض وإلى « سعد بن أبى وقاص » فرفض . .

ومن ذا الذى يقبلها ، وقد رفضها الإمام على ؟

والحق أن رفض « على » لها هو الذى حتّم عليه آخر الأمر قبولها . .

ذلك أنه برفضه هذا ، ذاد عنها كل الرجال حتى الطامعين فيها . . ولم يجرؤ أحد ، وقد رأوا « بن أبى طالب » يرفضها احتجاجاً على اغتيال الخليفة الشرعى « عثمان » نقول : لم يجرؤ أحد أن يتقدم منها أو يتلقّ مسئوليتها . .

ولكن لابد للدولة من حاكم وخليفة ، وكل دقيقة تمر والمكان شاغر ، تشكل خطراً قد يودى بمصير الأمة كلها والإسلام كله .

ولقد أدرك ذلك سريعاً جميع الناس بالمدينة — أهلَها . . والثوار الطارئون عليها . . الساخطون على مقتل « عثمان » والمشتركون فيه . .

كلهم أدركوا الخطر الماحق المزلزل الذى سيحل الأمة فى أقطارها القريبة والنائية إذا لم يمسك بالزمام على الفور ، رجل مقتدر يستطيع أن

يقف جموح الفتنة ، ويرأب ذلك الصَّدْعَ العريض . .

وهكذا عاد « الثوار » إلى الإمام يُلحّون ويرجون . .

وقَبْل الثوار ، تقدم الراشدون من أهل المدينة يبايعون « علياً » على الخلافة .

وبهذه البيعة التى كانت – يومئذ – الطريقة التى يُختار بها الخليفة ، صار « الإمام علىّ » خليفة للمسلمين .

* * *

لم يكن بين أصحاب رسول الله الأحياء يومئذ ، من يفوق « الإمام » فى كفاياته الهائلة التى تجعله جديراً بمكانه فى الخلافة . .

ولم تكن الخلافة عندما عُرضت على « الإمام » وعندما قبلها ، تشكل أى مغنم من مغانم الحياة . . بل كانت تشكّل عِبئاً ، لحامله الوَيل كل الويل ، إن لم يُعنْهُ الله . .

وكان الواجب الكبير الذى ينتظر كل مؤمن وكل مسلم يومئذ ، بَذْل العون المستطاع لوقف امتداد الفتنة ، وذلك بالوقوف فى ولاء وصدق وإيثار وراء « المنقذ » الذى تقدم ليحمل مسئولية الموقف كله ، وليدْرأ عن الإسلام ودولته وأمته أخطاراً لو قُدِّر لها أن تبلغ مداها ، لأتتْ على البناء كله من قواعده . .

لكن ذلك لم يَكُن . . بل كان نقيضه تماماً . .

* * *

إن رجولة الإمام ، وبطولته ، وعظمة مبادئه وسلوكه ، تتجلى الآن فى أبهى صُورها ، وقد صار خليفة وسْط الأهوال . .

تتجلىَّ فى الدرس الذى تركته حياته للدنيا بأسرها . ألا وهو أن الولاء السَّديد للحق ، يتمثل فى الوقوف الصامد إلى جانبه ، وليس فى الدوران حوله ، لأن الوقوف إلى جانبه مهما يصاحب ذلك من هزائم ومصاعب ، هو وحده الذى يزيد فى نفوذ الحق ، ويجعل انتصاره النهائى أمراً محققاً .

بروح هذا الإدراك لقيمة الحق ، وبوثاقة هذا الولاء له ، بدأ « ابن أبى طالب » مَهامَّ منصبه كخليفة .

لقد بدأ يردُّ طريقة العطاء من بيت المال إلى النهج الذى كان يسير عليه الخليفة الأول « أبو بكر الصديق » . .

وكان « الصِّديق » رضى الله عنه ، يعطى جميع الصحابة والمسلمين بالسَّوية دون تفريق بين مَن سَبق إلى الإسلام ، ومن جاء متأخراً . .

فلما وُلِّىَ الخلافة « عمر » رضى الله عنه نهج نهجاً آخر ، فجعل للسابقين الأوَّلين ، أكثر مما يأخذ الذين تأخَّر إسلامهم . . وقال فى ذلك قولته المأثورة :

[لا أجعل مَن قاتَل رسول الله ،
كمن قاتَل معه] . .

يشير بهذا إلى أنه لا يُسوِّى فى العطاء بين الذين التفُّوا حول الرسول مبكرين ، وقاتلوا معه من أول يوم ، وبين الذين طالما قاتلوه وهم كفار ، ثم صاروا فيما بعد من المسلمين . .

وكان « الإمام على » أمْيَلَ إلى نهج أبى بكر ، مُفسراً رأيه ، بأن الدولة لا تعطى المسلمين مَثوبة دينهم وثَمَن إيمانهم ، فمثوبة الدين والإيمان

عند الله . . إنما تعطيهم حاجتهم ليعيشوا ، ومن ثمَّ فلا داعى للتمييز بينهم أو التفضيل .

كما أن التفَاوُت فى العطاء من شأنه أن يخلق فرص تراكم الثروات لدَى بعض الأفراد . . مما يشكِّل مع الزمن فتنةً فى الدين وفساداً فى الدنيا . .

* * *

وفى خلافة أمير المؤمنين عمر ، لم تدَعْ صرامته ويقظته أىَّ مجال لتراكم الثروة ، فقد كان حسبه أن يعلم أن « فلاناً » من وُلاته قد فاضت نعماؤه وكثر ثراؤه ، حتى يرسل إليه فيقاسمه كل ما يملك ويرده جميعاً إلى بيت مال المسلمين .

* * *

ولكن فى خلافة « عثمان » وكان المسلمون قد بلغوا من الجُهد أقصاه بسبب ذلك الشَّظف وذلك الزهد اللذين فرضهما عليهم فى جلال باهر أميرهم العظيم « عمر بن الخطاب » .

كما وجدوا فى الخليفة الجديد « عثمان » من الطيبة والتسامُح ، ما أغراهم بأن ينالوا من طيبات الحياة كل ما يستطيعون .

هنالك انفتحت أبواب الدنيا بغير حساب ، ولئن وجدت من أصحاب الرسول من يعتصم دونها بورعه وبزهده وتُقاه . . فقد وجدت من بعض المسلمين ، لاسيما الذين أسلموا بعد الفَتح ، والذين أسلموا بعد وفاة الرسول ناساً كثيرين ، استسلموا لعَرَض الحياة الدنيا ، وفتنتها ، وعجزوا عن النهوض إلى مستوى الحياة التى يرسمها الإسلام للمسلم ، وخاصة فى فى أيامه الأولى . .

ولقد صار لكثير منهم ضِياع ، وتجارة عريضة ، ثروات وقصور وبذخ ، لاسيما ذلك النفر من الأمويين ، الذين استغلُّوا ظروفاً مُعينة ، ليجعلوا من أنفسهم طبقة متميزة بثرائها وبنفوذها .

* * *

جاء « الإمام على » فقرر أن يرد العطاء إلى نهج أبى بكر . . وهو يعلم علْم اليقين أن ذلك سيغضب منه بعض الصحابة الكِبار الذين أيّدوه ، ولا يزال فى حاجة أكيدة لاستمرار تأييدهم .

ولكن ابنَ عَمِّ الرسول لا يعرف المساومة فى الحق ؛ فليقف إلى جانب الحق ، وليكن ما يكون . . . !

هذه واحدة . .

والثانية التى نادت إليه المتاعب ، وفعلَها فى ولاء للحق وثيق ، هى أن نفراً من وُلاة الخليفة الراحل « عثمان » لم يكونوا فى رأى « على » أهلاً لهذه الولاية . . ولقد كانوا السبَبَ المُباشر فى الفتنة الرهيبة التى أودَت بحياة الخليفة « عثمان » . . لذلك بدأ « الإمام » فى الساعات الأولى لخلافته يصدر أوامره بعزل هؤلاء ، واضعاً مكانهم فريقاً من الأصحاب الذين معهم من الدين ، ومن الاستقامة ، ومن المقدرة ما يجعلهم موضع ثقة الخليفة ، وملاذَ المسلمين . .

عزلَ أولئك ، وولَّى هؤلاء . . وكان ضمن المعزولين « معاوية » الذى كان يومَئذ والياً على الشام بأسرها .

وكان « مُعاوية » قد طَال بالشام مُكثُهُ ، وكان يُعِدُّ لطموحه البعيد كل احتياجات الغَد المرتقب ، ومن ثمَّ أتمَّ هناك بناء جيش قوى .

وتألّفَ الناس بالأموال وبالدهاء حتى صارت الشام حصنه المغلَق ، المنيع ..

كان أمير المؤمنين « على » يعرف هذا جيداً . . كما كان يعرفه بعض أصحابه الذين ذهبوا إليه يرجونه متوسلين أن يُرجئ عزل ولاة « عثمان » وخاصة معاوية ، حتى يعطوه البيعة ، وحتى تستقر الأوضاع المضطربة وحتى يُمكِّن « الخليفة » لسلطانه ، ثم بعدها يعزلهم كيف شاء . .

ولكن « ابن عمّ الرسول وتلميذه الصَّدوق » لا يعرف المساومة فى الحق ، فهو يرفض أن يبقى واحد من هؤلاء فى مكانه يوماً واحداً . .

ويذهب إليه ابن عمه « عبد الله بن عباس » يرجوه أن يرجئ أمر « معاوية » بعض الوقت ، وستأتى قريباً فرصة عَزله . .

لكن الإمام الراشد يرفض – برغم كل العواقب – أن يتحمل أمام الله مسئولية إبقاء معاوية فى مكانه والياً للمسلمين ، ولو ساعةً واحدة من نهار ، قائلاً عبارته المأثورة :

[لا والله ، لن يرانى الله مُتَّخِذَ المُضلِّينَ عَضُداً] . . ! !

وأمام ولائه الباهر لمسئولياته ، لم يضيع وقته هدراً . .

فقد نهض على الفور فأرسل عُماله الجدد إلى الأمصار :

عثمان بن حنيف ، إلى البصرة . .

وعمارة بن حسان ، إلى الكوفة . .

وعبد الله بن عباس ، إلى اليمن . .

وقيس بن سعد بن عُبادة ، إلى مصر . .

وسَهْل بن حُنيف ، إلى الشام . .

ولقد تسلم الوُلاة عملهم فى سلام ، إلا سُهيل بن حُنيف ، والى الشام الذى عُيِّن مكان معاوية ، فإنه لم يكد يصل أرض « تَبُوك » المتاخمة للشام حتى استقبلته كتيبة من جيش معاوية حالت دون دخوله البلاد .

ولما رجع إلى المدينة ، حاملاً هذا النبأ إلى الإمام ، لم يفاجأ بما سمع فقد كان يتوقع من معاوية مثل هذا التمرد غير المشروع . .

* * *

طوال حياته العظيمة ، لم يتعود « علىٌّ » قط أن يكون هناك خِيارٌ بين مبادئه ، ومصالحه . .

وذلك لسبب يسير ، هو أنه لم تكن له مصالح أبداً . .

كانت حياته رسالة . . وكان عمله وسلوكه تعبيراً وافياً عن هذه الرسالة . .

وإنه الآن لقَادِرٌ بقليل من الدهاء والمسايرة ، أن يطوى « معاوية » حتى يقتلعه من مكانه فى هدوء .

ولكنه يتساءل دوماً : ما حاجة الحق إلى أن يُساوم . . وإذا ساوَم الحق فما مزيته على الباطل . . ؟ ؟

وها هو ذا يتصرف الآن وَفق هذا الإدراك لقيمة الحق ولقداسته .

لقد عزل « والياً » لا يراه أهلاً لمكانه ، ورفض هذا الوالى تنفيذ أمر خليفته ، ورئيس دولته .

إذن ، فليتحمل مسئولية موقفة وتمرده . .

هناك كتب إليه الإمام :

[. . أمَّا بعد ،

فقد بلغَك الذى كان من مُصاب
عثمان ، واجتماع المسلمين علىَّ ومبايعتهم
لى ، فادخل فى السِّلْم أوانْذَنْ بحرب] .

كان يرجو أن تردع هذه الكلمات « معاوية » ولكن رد « معاوية » كان عجيباً . . فقد قال لرسول الخليفة : [عُد أنت إلى حيث جئت ، وسأرسل بجوابى مع رسول من عندى] .

وفعلاً ، أرسل جوابه مع رجل من بنى عَبْس قطع الطريق إلى المدينة حاملاً رسالة حاكم الشام . . .

وما كاد « الإمام على » يفضّ الرسالة ليقرأها ، حتى ملأت الدهشة مُحياه . .

لقد كانت الرسالة ورقة طويلة وعريضة ، ليس فيها من كلام مسطور سوى هذا السطر الواحد :

– من معاوية بن أبى سفيان ، إلى على بن أبى طالب . . ! !

وارتسمت على شفتى « الخليفة » ابتسامة مريرة ، والْتفت صوب مبعوث معاوية الذى كان قد نهض وراح يتكلم قائلاً :

– أيها الناس ، اسمعوا منى وافهموا عنى . .

« إنى قد خلَّفتُ بالشام خمسين ألفاً ، خاضِبى لحاهُم بدموع أعينهم تحت قميص عثمان ، را فِعيهِ على أطراف الرِّماح ، قد عاهدوا الله ألا يَشيمُوا سيوفهم حتى يقتلوا قتَلته أوتلْحَقَ أرواحهم بالله » . . ! !

هذه إذن : رسالة « معاوية » .

وهذه خُطته المرسومة لمناهضة الخليفة الجديد .

قميص عثمان . . ! !

نحن هنا ، وفى كتبنا المماثلة[١] لا نؤرخ للوقائع ، إنما نُؤرخ للعظَمَة . .

أجل . . العظمة الإنسانية التى بلغت فى الذين نؤرخ لهم ذُراها السامقة ، وغاياتها البعيدة . .

من أجل هذا ، لا ندع – الآن – ضجيج الحوادث وأفواج الوقائع ، تصرفنا عن تتبع العظمة التى يرسمها لنا « الإمام » . . وبمواقفه تجاه الوقائع والأحداث .

لقد سارت الأحداث على النحو الذى ساعد معاوية ، بينما زاد الأمور صعوبة وتعقيداً أمام « الإمام » .

فالسيدة « عائشة » رضى الله عنها ، وكانت قد خرجت إلى « مكة » معتمرة قبل مقتل « عثمان » قد جزعت لمقتله أشد الجزَع .

و« الزبير » و« طلحة » من كبار أصحاب رسول الله ، وقد تركهما « الإمام » يغادران المدينة إلى مكة عندما طلبا ذلك . على الرغم من نصيحة بعض أصحاب « الإمام » له كى يحتفظ بهما إلى جانبه حتى يأمن أمرهما .

عائشة أم المؤمنين ، والزبير ، وطلحة ، صاحبا رسول الله . . ساروا على رأس حشد كبير من المسلمين إلى البَصْرةَ ، ليحرضوا المسلمين بالعراق على الثأر من قتلة عثمان . .

وكان « الإمام على » قد غادر المدينة إلى العراق عندما جاءته رسالة

---

(١) كتاب « محمد والمسيح » وكتاب « وجاء أبو بكر » و« بين يدى عمر » و« رجال حول الرسول » .

معاوية التى مرَّ بنا ذِكرها ، وقال الإمام :

[إنّ لأهل الشام وثَبَةً أُحب أن أكون قريباً منها] . .

ولكنه ، وهو فى طريقه إلى العراق ، جاءته الأنباء بمسيرة عائشة ، وطلحة ، والزبير إلى البصرة .

أىُّ رزْءٍ هذا ، وأى ابتلاء ؟ !

ألا يُترك ثأر « عثمان » للدولة تقوم به ، وتقتصُّ له فى الوقت المناسب والفرصة الملائمة . . ؟

* * *

لم يكن لدى « الإمام » ريب فى اقتناع « السيدة عائشة » . و« طلحة » و« الزبير » ببراءته الكاملة من دم عثمان . . ففيم إذن خروجهم . . ؟

إن النبأ السَّارى يقول . إنهم خرجوا ليتعقبوا قتلة عثمان فى البصرة ، وليستعينوا بصالحى البصرة وبقية أهل العراق ممن آسَفَهم قتل الخليفة ، على أولئك الذين ائتمروا على حياته وخاضوا فى دَمِه . .

ولكن هناك « دولة » على رأسها رجل مسئول لم تكن ذِمّته ، ولا أمانته ، ولا ورعَه ، ولا شدَّته فى الحق حتى على نفسه . لم يكن ذلك كله موضع تساؤل أو اتهام منذ رأى نور الحياة وليداً إلى يومه هذا . .

أفلا تُترك الدولة وعلى رأسها حاكم هذا طرازه الرفيع الأمثل ، تُسوى هى ، ويسوى حاكمها مسألة عثمان . . ؟

وإذا وقف فريق من الأمة يطالب بدم عثمان ، وفريق آخر يَدْحض

ويقاوم هؤلاء المطالبين ، واشتبك الفريقان فى معارك مسلحة فأين الدولة آنئذ . . أتجلس فى شرفة الملعب لتتفرج على المذبحة . . ؟ وما مصير الإسلام كدين . . ؟ وما مصير المسلمين كأمَّة . . ؟

دارت على ذلك كله خواطر « الخليفة » واتخذ قراره سريعاً فأمر موكبه الهادر من المدينة أن يلوى زمامه شطر البصرة . . وعندما شارفوا تخُومها نزلوا هناك بمكان يسمَّى « ذاقار » . .

* * *

وسرعان ما تحققت ظنونه وصدَق حَدْسه فإن موكب السيدة عائشة ، لم يكد يستقر فى البصرة . حتى وقع صدام مُرَوِّع بينه وبين حشود كبيرة من أهل البصرة أبوا أن يسلِّموا أقرباءهم وذويهم ممن اشتركوا فى مقتل عثمان .

إنها إذن الحرب الأهلية . التى حاذرها الإمام . .

وإنه وحده المسئول الأول والأخير عنها . .

أليس هو رئيس الدولة ؟ فإما أن يكون كفئاً لِفرض احترام القانون والدولة . . وإما أن يدع مكانه لآخر من الأكفاء . .

وليس هناك يومئذ أكفأ من أبى الحسن ، وإن العظائم كُفْؤها العظماءُ ! !

* * *

لقد اعتاد « الإمام » دائماً أن يتصرف تصرُّف « القُدوة » . . فهو فى كل حركاته ، وقراراته ، وأعماله يلتزم واجبات القدوة . .

إن كلماته ، وخطواته ، لتشكل طريقاً عاماً للأجيال المقبلة على

طول الزمن وعَرضه ، ومن ثمَّ فإن الشعور بتبعات القدوة أكثر الأشياء إملاءً عليه ، وإيحاءً إليه ! !

فى طفولته ، كان يسلك مسلك « القدوة » ، فلا يلعب لعب الأتراب ، ولا يلهو مع الصِّبية ! !

وفى شبابه ، كان يسلك مسلك « القدوة » ، فقضاه شباباً طاهراً وحمَّله مسئوليات الرجال مُبكّراً . .

وفى رجولته ، وخلافته ، أعطى كل عزمه وكل نفسه لما تتطلبه « القدوة » من تبتُّل وصمود ! !

وهو الآن وقد واجهته الفتن فى مَوج كالجبال ، لن يلقاها بمسئوليات « الخليفة » فحسب . . بل سيلقاها قبل ذلك بمسئوليات « القدوة » ! !

أجل . . بمسئوليات « القُدوة » الذى ستصبح اتجاهاته وقراراته طريقاً عاماً ، وقانوناً عاماً لعصور مقبلة ، وأجيال وافِدة . .

ولن نجد فى حياة « على » بكل عظمتها وعطائها ، أروع ولا أجزل من مواقفه فى تلك الفتن المظلمة الرهيبة التى واكَبَتْ خلافته من أول ساعة إلى أن لقى رَبَّه . .

هنا نلتقى بمُعلِّم كبير ، ليس من طرازه سواه . . « مُعلِّم » لم يكن يعنيه النصر على خصومه ، ولا تأمين خلافته وحكمه وسلطانه .

إنما كان يعنيه – لا غير – أن يعطى من حياته ومسلكه صورة مُشرِّفة لمسلم من الرَّعيل الأول ، سمع دَوِىّ الوحى ، وصلى وراء محمد . . ! !

أجل . . صورة مشرفة لمسلم ربّاه القرآن ، وقدوة صالحة لمواكب المسلمين القادمة مع الغيب القريب والبعيد . . ! !

هذا هو الذى كان يعنيه . . وبعد ذلك ، ليكن ما يكون . . نصر ، أم هزيمة . . خلافة ، أم عَزل . . حياة ، أم موت . .

لا شيء بعد القدوة الصالحة ، ترنو له النفس ، أو تحوِّم حوله الرغبة ! ! !

وهكذا نلتقى بـ« الخليفة » يتصرف تصرف « القدوة » . . الآن ، وكل آن . . اليوم ، وهو يواجه جيشاً تقوده « أم المؤمنين » و« الزبير » و« طلحة » وغداً ، وهو يواجه جيوش معاوية . . وبعد غد ، وهو يواجه الخوارج . . ! !

* * *

عندما جاءته أنباء الصدام فى البصرة ، بعث إلى أهل الكوفة يدعوهم لنصرته . فلما وفدوا عليه ، زلزلوا الأفق بصياحهم ، وملأوه بسيوفهم المشرعة ، وراحوا يتعجلون « الإمام » ليواجه بهم جيش البصرة بقيادة طلحة والزبير . .

وهنا تجلَّت فطنة الإمام ونور بصيرته ، فلقد استبان من الحماس المشبوب لأهل الكوفة ، أنهم كانوا على وشَك أن يخرجوا بأنفسهم مسلحين إلى البصرة ، لينضموا إلى المقاومة المسلحة التى هبَّتْ هناك فى وجه طلحة والزبير . .

ذلك أنه إذا كان من أهل البصرة من اشترك فى الثورة على الخليفة الراحل « عثمان » . فإن فى أهل الكوفة من اشترك أيضاً والآن وقد رأوا أنفسهم فى مَهبِّ العواصف ، فقد تنادَوا بالنصرة ، وتلاقوا على الحميَّة . .

فوضْعُ هذه القوات الثائرة تحت سلطة القانون والدولة كان عملاً حكيماً وحصيفاً . .

* * *

رأى « أمير المؤمنين » حماس أهل الكوفة ، فأراد أن يهديهم سواء السبيل ، وراح يعلمهم أن الحق يُدرَك بأسباب كثيرة آخرها امتشاق الحسام . . وأنهم إذا فرض عليهم أن يخوضوا قتالاً ، فلا بد أن يكون مشروعاً وعادلاً . . وهو لا يكون كذلك حتى يستفرغ الجهد فى إحقاق الحق عن طريق الإقناع والسلام . .

هنالك دعا – القعقاع بن عمرو – وأرسله بغصن الزيتون إلى أم المؤمنين ، وطلحة ، والزُّبير . .

وفى البصرة بدأ « القعقاع » بمحادثة « أم المؤمنين » ، ثم جاء « طلحة » و « الزبير » فعقدوا اجتماعاً طال فيه الحوار .

وندعُ « ابن كثير » المؤرخ الكبير ، ينقل إلينا بعض فقرات هذا الحوار ،

القعقاع : يا أم المؤمنين ، ما جاء بك إلى هذا البلد ؟

أم المؤمنين : الإصلاح بين الناس . .

القعقاع : وأنتما – طلحة والزبير – ما جاء بكما ؟

طلحة والزبير : الإصلاح بين الناس ؟

القعقاع : فأخبرونى كيف يكون هذا الإصلاح ؟

طلحة والزبير : يكون بالثأر لعثمان ، وقتل قاتليه . .

القعقاع : لقد قتلتما قتلَته من أهل البصرة ، وأنتما قبل قتلهم أصوب نهجاً منكم بعد قتلهم ؛ لأنكم قتلتم ستمائة ، فغضب لهم ستة آلاف .

وها أنتم أولاء تطلبون أحد القتلة وهو – حرقوص بن زهير – فلا تقدرون على إدراكه ، لأن ستة آلاف يشايعونه ويحمونه . . أفلا تعذرون – أمير المؤمنين علياً – إذا هو أخَّر قتل قتلة – عثمان – إلى أن يتمكن منهم ؟

إن الكلمة فى جميع أقطار الإسلام مختلفة ، وإن خَلقاً كثيرين من ربيعة ومُضَر ، قد تجمعوا ليشعلوها حرباً ضروساً . . !

أم المؤمنين : وما ترى ياقعقاع ؟

القعقاع : أرى أن تُؤثِروا العافية ، وتُعطوا البيعة ، وأن تكونوا مفاتيح خير كما كنتم أولاً ، ولا تعرضونا للبلاء فتتعرضوا له ! !

وانتهى الحوار – كما يحدثنا ابن كثير – باقتناعهم بمنطق القعقاع ، واتفاقهم على أن يجىء الإمام علىّ إلى البصرة ليتم لقاء السَّلام .

* * *

عندما رجع « القعقاع » إلى « الخليفة » وأنبأه بما كان ، طار فؤاده فرحاً ، ولم يكن على وجه الأرض ساعتئذ أسعد منه ولا أهنأ . .

لقد حُفظت دماء المسلمين فلن تُراق . . وليس مثل ذلك شىء يفىء على روح « الإمام » السعادة والغبطة .

وخطبته التى ألقاها على جنده ساعتئذ ، تنقُل إلينا أفراح نفسه ، وحُبور ضميره . .

لقد راح يستعرض لهم الجاهلية بخصوماتها العاتية وحروبها الضارية حتى جاء الإسلام فألَّف بين القلوب ، وآخى بين البشَر ، وجعل الناس سواسيةً كأسنان المشط ، لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى .

وذكَّرهم بتلك الوحدة الباهرة التى جمعت المسلمين من كل مكان تحت إمرة رسول الله صلى الله عليه وسلم . .

ثم تحت إمرة خليفته من بعده « أبى بكر الصديق » ثم تحت إمرة أمير المؤمنين « عمر » ثم تحت إمرة خليفة المسلمين « عثمان » وختم حديثه

قائلاً ، وكأنما كانت عيناه إذ ذاك على معاوية . .

[. . . . ثم حدث هذا الذى جرى
على الأمة . . أقوام طلبوا الدنيا
وأرادوا للإسلام أن يرجع القهقَرى . .
ولكن الله بالغُ أمره . .
« ألا إنى مُرْتحِلٌ غداً ، فارتحلوا
معى . .
« ولا يَرتحِلْ معى أحد أعان على
قتل عثمان ولو بشَطْر كَلِمة] ! !

إنه « الرجل القدوة » هو الذى يتحدث ، وإنه لَيتَّخِذ من الكلمات ومن المواقف ما يزيد الحق نفوذاً ، والعدل رسوخاً ، والفضيلة ازدهاراً . .

* * *

ورحل أمير المؤمنين إلى البصرة بمن معه من صحبه وجُنده . . وحطوا رحالهم هناك حيث أخذ كل فريق يتهيأ لإجراء الصلح . .

ولكن كانت هناك عيون لا تنام ، ومؤامرات لا تغفو . . والله وحده يعلم حقيقة القُوى المخبوءة التى حرَّضت تلك العيون ونسجت تلك المؤامرات ، وغيرت اتجاه الرياح !

التاريخ يحدثنا – فيما يُحدث – أن قتلة « عثمان » حزموا أمرهم على إفساد هذا الصلح ، معتقدين أنه سيتم على حساب رؤوسهم ودمائهم ، فهل كان ذلك كذلك فحسب . . ؟ أو كانت هناك قوى غير منظورة لها فى اشتعال النار هوًى ومصلحة . . ؟

على أية حال ، فإن فجر اليـوم الذى ضُرب موعداً لبدء المصالحة لم يكد يبزغ حتى كان ألفا رجل من قتلة عثمان يقتحمون خيام جيش البصرة الذى يقوده طلحة والزبير ، ويعملون سيوفهم فيهم وهم نائمون . .

ونهض الجميع إلى سيوفهم . . ولم يكن هناك مجال لإزالة اللَّبْس وتفنيد المؤامرة ، ووقف الفتنة . فقد ظن أهل البصرة أن حديث الصلح كان خُدعة .

وهكذا الْتقَى الجيشان فى موقعة « الجمل » على الرغم من كل ما حاول الإمام أن يُنقذ به السلام ! !

* * *

مضى القتال حامياً عنيداً . .

ومع كل رأس يميل ، أومعصم تُبتر ، أوساق تقطع . . بل مع كل قطرة دم تسيل ، كان قلب « الإمام » ينخلع ويذوب . .

لقد كان يُسْكِرُه الكرُّ والفرُّ فى صراعه مع المشركين .

أما اليوم ، والقاتل والمقتول أبناء دين واحد ؟ وهو الخليفة المسئول عن هذه الأمة بكل دمائها وأرواحها ، فَمن يُجيره من هذا الموقف ؟ من يجيره ؟

* * *

لكنه حتى وهذه الأهوال كلها تحيط به ، لا يفقد شرف البطولة وعظمة النفس . . !

ففيم تقتتل هذه الألوف من المسلمين ؟

أليس بعضهم يقاتل من أجل « على » وبعضهم الآخر مع « طلحة والزبير » . . ؟

إذن ليبرز طلحة والزبير وعلى معاً . . حيث يسوُّون مع أنفسهم وحدها الحساب على أية صورة ، فيقف جريان تلك الدماء الغالية .

هنالك دفع جواده وسط صفوف الجيش المقاتل له ، ونادى :

– إلىَّ يا طلحة . . إلىَّ يا زبير ! !

وخرجا إليه . .

وتوسط الثلاثة الصفوف المتلاحمة كالطوفان .

وصاح فى « طلحة » صيحة احتشد فيها كل ما ورَّثه آباؤه من شرف ونخوة :

[يا طلحة . .
أخبأتَ عُرسَك فى البيت وجئت
بعُرس رسول الله تقاتل بها] . . ؟ ! !

وزأر الأسد زئيراً هزّ أرجاء الأفق ، وسقط المطر فجأة . . وكأنما هى دموع السماء هزّتها روعة الكلمات وأساها . . ! !

ثم التفتَ صوْب الزبير . .

[. . وأنت يا زُبير . .
أتذكر يوم – كذا – عندما رأيتنى
مُقبلاً على رسول الله فضحكت لى . .
فسألك الرسول : أتحبه يازبير ؟
فقلت : نعم . .
فقال لك ! أمـا إنك لَتقاتِلنَّه
وانت له ظالم] . .

كانت الكلمات تحتشد فى فمه ثم تنفرج عنها ثناياه فى مثل ألَقِ الشمس وعنفوان القدَر .

وصاح « الزبير » .

[أَجَلْ . .

ولقد ذكّرتنى بما كنت قد نسيت] .

وألقى سيفه إلى الأرض ، وراح يختلج بين الصفوف ودموعه تبلِّل الأرض أمامه

وعاد « على » إلى صفوف جنده . .

وغادر « طلحة » أرض القتال . . وغادرها « الزبير » . .

غادراها بعد أن سمعا من « الإمام » ما سمعا . .

وبعد أن علما أن « عمّار بن ياسر » يقاتل فى جبهة الإمام على . وتذكَّرا ما كان الرسول قد قاله ذات يوم لعمار :

[تقتلُك الْفِئَةُ الباغية] ! !

بيد أن الأضغان المريبة لم تدعْهُما ليذهبا فى سلام .

فأما الزبير فقد تربصت به فى الطريق عصابة آثمة قتلته . . ! !

وأما طلحة ، فلم يكد – مروان بن الحكم – الأموى يعلم بعزمه على الانسحاب من القتال حتى تربص به ورماه بسهم أنهى حياته !

* * *

لم يبق لجيش البصرة من قائديه أحد . .

لقد ذهب عنه طلحة ، والزبير . . بل لقد ذهبا عن الدنيا كلها إلى ربهم الغفور الرحيم .

هنالك لم يجد الراغبون فى استمرار القتال سوى « أم المؤمنين » فى هودجها فوق ظهر الجمل الذى كانت تمتطية مشرفة على القتال . .

ورأى الإمام أن خُصومه قد اتخذوا من الجمل كعبة أحاطوا بها .

وبدا له أن نهاية المعركة ووقف الدماء المهراقة ، منوطان بنهاية هذا الجمل .

وأشير عليه ، أو أشار هو على نفسه أن يُرمى الجمل بسهم يجهز عليه . . وأوصى بعض أصحابه وجنده ، أن يكونوا على أقرب قرب مُستطاع من الجمل ، حتى إذا عُقر وسقط ، سارعوا هم إلى هودج السيدة عائشة فأحاطوه بأرواحهم ، وتلقَّوه قبل أن يسقط على الأرض فيصيبها سوء .

رجل . . وبطل . . وقدوة .

فماذا يُنتظر منه غير هذا الصنيع . . ؟ !

ونُفذت الخطة بنجاح . .

وانتهت المعركة ، ووقف القتال .

ودعا إليه « محمد بن أبى بكر » فأمره أن يصحب أخته أم المؤمنين عائشة إلى دار أعدت لاستقبالها ريثما تتهيأ لها وسائل العودة إلى مكة فالمدينة فى أمْن ، وإكرام ، وسلام .

ثم وقف « الإمام » بنفسه وسط جنده وأصحابه ليتلو عليهم قراره الجديد :

[لا تتَّبِعوا موالياً . .

ولا تُجْهِزوا على جريح . .

ولا تنتهبُوا مالاً . .
ومَن ألقى سلاحه فهو آمن . .
ومن أغلَق بابه فهو آمن] . .

يقول المؤرخون[١] .

[فكان أتباع الإمام يمرون بالذهب
والفضة ، فلا يعرض لهما أحد] . .

لقد نفذوا أمر الإمام فى مرارة وضيق . أو هكذا كان شأن بعضهم على الأقل . . مما جعلهم يسألون الإمام :

– كيف حلَّ لنا قتالهم ، ولم يَحلَّ لنا سَبْيهم وأموالهم ؟

فأجابهم الإمام :

[ليس على الموحِّدين المؤمنين سَبْى . .
ولا يُغْنَمُ من أموالهم إلا ما قاتلوا به
وعليه] . .

كان « الخليفة » يعلم أن نهيه هذا سيؤلب ضدَّه بعض مؤيديه من ضعاف الوازع . . ولكن لينفضَّ عنه الناس أجمعون إذا كان إيثارُه الحقَّ سيظلُّ قصده وسبيله ! !

* * *

وانتهت هذه الجولة بانتصار أمير المؤمنين .

ولم يكن الانتصار العسكرى يمثل سوى الحظ الأدنى فى هذا الانتصار الكبير . . أما الحظ الأوفى فيه ، فكان انتصار حقه ، ومبادئه .

---

(١) الأخبار الطوال ، لأبى حنيفة الدينورى .

فانسحاب طلحة والزبير من القتال فى أوْج احتدامه ، جاء اعترافاً منهما بأن « عليًّا » مع الحق . .

ونَدمُ « أم المؤمنين » فيما بعد على الزجِّ بنفسها فى هذا الموقف يشكلُ اعترافاً بأن « عليًّا » على الحق .

وهذا هو النصر الأهمّ الذى ينشرح له صدر الإمام .

إن كل ما يرجوه ويطمع إليه ، أن يقف بجانب الحق ، وأن يفهم الناس عنه ذلك ، ليكونوا له عوناً على تقديس الحق .

وإن كل ما يرجوه ويطمع إليه أن يظلَّ أميناً على واجبات « القدوة » والتزاماتها . وأن يفهم الناس عنه ذلك أيضاً ، لينتفعوا بهذه القدوة فى تشكيل حياتهم .

ولقد واجه الموجة الأولى من موجات الفتنة الضارية بجأش البطل ، وأناة الحكيم ، ووَرَع القُدوَة .

لننظر هذا المشهد الأخير من مشاهد موقعة الجمل .

لقد كان يجلس فى داره بعد انفضاض المعركة ومعه أصحابه ، حين دخل عليه أحد أتباعه يقول :

– عمرو بن جرموز قاتل « الزبير » بالباب يستأذن فى الدخول . .

وأذن « الإمام » بدخوله . .

ودخل « القاتل » مَزهُوًّا فخوراً ، يظن أن الخليفة سَيَهشّ له ، ويستقبله استقبال الأبطال .

لكنه لم يكد يواجه الإمام حتى صرخ فى وجهه :

– أهذا الذى تحمله سيف الزبير . . ؟

قال وقد هزمت غرورَه صرخةُ الإمام .

– نعم هو . . سلَبتهُ منه بعد أن قتلتهُ ! !

فأخذه منه « الإمام » بيمينه . . ثم أمسكه بكلتا يديه ورفعه فى خشوع إلى فمه . . ثم قبَّله فى حنان وحُزن ، وقال ودموعه تسيل على وجنتيه :

[سَيفٌ طالما – واللهِ – فرَّج به
صاحبُه الكربَ عن رسول الله] ! !

ثم صوَّب إلى القاتل نظرات ملتهبة وقال له :

[أَما أنت ، فأبْشر يا قاتل ابنِ
صَفِيَّةَ بالنار] . .

وخرج « عمرو بن جرموز » يتعثر فى خِزيه ، وخيبة أمله ، ويقول :

« عجباً لكم . . نقتل أعداءكم ، وتبشروننا بالنار ! ! ! »

* * *

تلك عظمة ربيب الوحى ، وسابق المسلمين . . تلك عظمة الرجل ، والبطل . .

تلك عظمة الخليفة ، والقدوة ، وإنها لعظمة لن تكف عن توكيد ذاتها ، ما دام صاحبها حيًّا يُمارس العظائم ، ويصوغ المكرُمات . .

فإلى مشاهدَ أُخرى لنرى من أمرها عجباً .

* * *

تذكرون تلك الرسالة وذلك الرسول اللذين أرسلهما معاوية إلى أمير المؤمنين . .

الرسالة ورقة بيضاء فيها سطر واحد مكتوب هو :

= من معاوية بن أبى سفيان ، إلى على بن أبى طالب = هكذا « على بن أبى طالب » لا غير . . دون أى ذكر لِلقبه . . فلا خليفة المسلمين ، ولا أمير المؤمنين ! !

بل إن وَضعَ اسمه واسم أمير المؤمنين فى مقابلة كهذه تؤُمئ إلى التنابُز القبلى والجاهِلِى فى هذا الخطاب . .

فكأنه يقول له : أنا – ابن أبى سفيان – . . وأنت – ابن أبى طالب – وسننظر أى الابنين أعلى مقاماً ، وأشد ساعداً . . ! !

غفر الله لمعاوية : فما كان أغناه عن هذا الذى لجَّ فيه ، وتهالكَ عليه . .

لقد رفع فى الشام – كما قال رسوله لعلى – قميص عثمان حيث حشد تحته خمسين ألف مقاتل خاضبى لِحاهُم بدموع أعينهم ، رَافِعيه على أطراف الرماح ، قد عاهدوا الله ألا يَشيموا سيوفهم حتى يقتلوا قتلَةَ عثمان ، أو تلحق أرواحهم بالله . . ! !

فِيمَ كل هذا . . ؟ ولِمَهْ . . ؟

حقًّا إن قتل الخليفة الشهيد « عثمان » كان أبشع جريمة ارتكبت فى تاريخ المسلمين حتى ذلك اليوم .

ولا تتمثل الجريمة فى اغتيال الخليفة الشرعى ، فحسب ، وإن يك ذلك كافياً لدمغها بالجريمة وبالبشاعة . . إنما تتمثل أكثر وأكثر فى الطريقة التى تمَّ بها الاغتيال .

تلك جريمة لا مكان للحديث عنها الآن . . وقد نجد مكانها فى

كتابنا القادم إن شاء الله عن « عثمان » .

أما هنا . فحسبنا أن نسأل : فيم هذا الصُّراخ كله فى وجه « على » — أين دمُ عثمان . ؟

إننا لا نلوم ، بل نُحيِّ كل صوت صادق نزيه ارتفع مطالباً بدم عثمان !

وإن الطريقة التى اعتُدى بها على حياة الخليفة ، وعلى كرامة الدولة فى شخصه ، لتجعل الحجر الأصمَّ ينطق ويصيح ! اقتلوا قتلة عثمان . .

ولكن : هل كان نهج « معاوية » هو النهج الصحيح الأمثل لإنزال القصاص بأولئك القتَلة . ؟

أكان طريق القصاص ، أن يمتنع أولاً عن البيعة للخليفة الجديد الذى اختاره المهاجرون والأنصار فى المدينة ، ثم دخل المسلمون فى بيعته أفواجاً من كل الأمصار والأقطار . . ؟

أكان طريق الثأر لعثمان ، أن يمتنع معاوية عن البيعة ويتمرد على الدولة فى تلك الظروف المزلزلة التى لا تتطلب شيئاً كما تتطلب رَأبَ الصَّدْع وجمع الكلمة . . ؟

أكان طريق الثأر لعثمان ، أن يطوف بقميصه بلاد الشام كلها ، غارساً فى قلوب الناس أن « علياً » هو الذى أعان على قتل « عثمان » بالأمس . . وهو الذى يؤْوِى قاتليه اليوم . .

أكانت آية ولائه وحبه لعثمان ، أن يجعل من قميصه المضمَّخ بدمه — راية — يبعث تحتها كل غرائز الجاهليـة ، ويدير تحتها أتعس حرب

أهلية تزلزل الإسلام وتُفنى المسلمين . ؟

مرة أخرى ، يغفر الله لمعاوية . . فما كان أغناه عن هذا المتزَلق الوَعر ، والهُوَّة الفاغِرة ! !

* * *

إن جميع المسلمين الراشدين وقفوا بعد مقتل الخليفة يطالبون باحترام دمه ، والقصاص له . .

إن ذلك كان يمثل أيضاً احترام الدولة والقصاص لحرمتها وهيبتها .

« الإمام على » نفسه ، كان يطالب بدم « عثمان » ولكنه وقد صار على رأس الدولة ؛ فإنه لم يعد مُجرَّد مطالب بالدم . . بل صار السُّلطة التى عليها أن تنزل القصاص .

ولما كان المشتركون فى قتل عثمان والمحرضون عليه ، ألوفاً ، وليسو عشرات ، أو آحاداً . ولما كانت فتنتهم المسلحة لا تزال قائمة ونامية . فضلاً عن المضاعفات الجديدة الخطيرة التى طرأت على الدولة ممثلة فى معركة الجمل ، وفى تمرد معاوية وأهل الشام – فإنه لم يكن ثمة فرصة لإنزال هذا القصاص إلا بإجادة التوقيت المحكم لفرض كلمة القانون وسط هذا الجو المضطرب وتلك الفوضى .

و « عبد الله بن عباس » ابن عم الإمام على . وأحد قواده فى حروبه كلها ، طالب أيضاً بدم عثمان ، بل قال فى ذلك كلمة تغنى عن كل مقال فى ذلك المجال .

قال رضى الله عنه :

[لو لم يطالب الناس بدم عثمان

لأمطرت السماء عليهم حجارة] ! !

ففيم إذن كل هذا الاتهام لأمير المؤمنين علىّ ، وفيم كل هذا التحريض على عصيانه وقتاله . ؟

ها هو ذا – معاوية – بالشام لا يضيع لحظة من وقته فى التجهيز لمعركة كبرى . هاهو ذا يُثير الجموع ضد الإمام . فأين الإمام الآن ؟

انظروا . . ها هو ذا قد رحل عن البصرة ، وسار بأصحابه حتى نزل « الكوفة » .

لم تشغله المفاجآت الجديدة ولا الأخطار الماثلة عن فضائله ، فراح يمارسها بطريقته الفردية . .

بدأ ببيت المال فأخرج كل ما كان تحت سقفه من أموال ، وقسمها على مستحقيها . .

ويقترح عليه بعض مُرافقيه أن يستأنى فى الأمر وأن يستبقى من المال ما سيحتاج إليه ليتألف به رؤساء العشائر والجماعات ، فيرفض .

ثم يمعن فى غايته حتى إذا فرغ بيت المال ، يأمر الإمام أن تُنضح أرضه وتغسل بالماء . . حتى إذا تم ذلك ، قام فصلى فوق أرضه المغسولة ركعتين ! !

كانت هذه الصلاة فى بيت المال بعد نضح أرضه بالماء رمزاً لمعنى جليل .

كانت إيذاناً بعهد جديد تسيطر فيه الآخرة على الدنيا ، ويسترد الورع والتقى نفوذهما على الدولة ، وعلى المجتمع ، وعلى الأنفس والأفئدة جميعاً ! !

ثم دعى لينزل قصر الإمارة . . قصر كبير ترتفع هامته فى شموخ وفتنة – فلا يكاد يبصره حتى يُولِّى عنه مدبراً وهو يقول :

[قصر الخَبَالِ هـذا ، لا أسكنُه أبداً] ! !

ويُلح عليه أهل الكوفة أن ينزل به ؛ فهو أرحب ، وأنسب ، فيُصر على رفضه ويقول :

« لا حاجة لى فيه : إن عمر بن الخطاب كان يكرهه » . . .

ويمشى فى أسواق الكوفة ، وهو خليفة المسلمين ، فيرشد الضال ويعين الضعيف ويلتقى بالشيخ المسِنِّ الكهْل ، فيحمل عنه حاجته ويتحرَّجَ أصحابه مما يرون ، فيقتربون منه : يا أمير المؤمنين .

ولكنه لا يدعهم يُتمُّون حديثهم ، بل يتلو عليهم قول الله تعالى :

« تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهـــا لِلَّذِين لاَ يُرِيدُونَ عُلُـوًّا فِى الأَرْضِ ، ولاَ فَسَاداً ، والْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ » . .

ويشترى حاجات أهله وبيته ، ويحملها بيديه فإذا اقترب منه بعض مُرافقيه ليحملوها عنه أبى وقال وهو يبتسم لهم :

« أبو العِيال أحق بحمله » ! !

* * *

ويرتدى « الخليفة » جلباباً اشتراه من السوق بثلاثة دراهم . .

ويركب حماراً، وقد تدلّت على جانبيه ساقاه ، وكأنه واحد من فقراء البادية . . ويعزم عليه أصحابه أن يجعل وسيلته للتنقل جواداً يليق بأمير المؤمنين . . فيجيبهم قائلاً :

« دعُونى أُهِنْ هذه الدنيا » ! !

* * *

أجل . . ذلك كان طريقه . أن يقهر كل إغراء الدنيا ومباذخ السلطان . وأن يعيش كما كان رسوله ومُعلمه يعيش . فى تواضع النبوة ، لا فى بهرجة الملك . . وفى انتظار الآخرة ، لا فى الرُّكون إلى الدنيا .

ولقد أحسن وصفه « عمر بن عبد العزيز » رضى الله عنه حين قال :

« أزهَدُ الناس فى الدنيا على ابن أبى طالب » .

كما وصفه « الحسن البصرى » رضى الله عنه حين قال :

« رَحِمَ اللهَ عليًّا كان رهبانى هذه الأمة » .

* * *

رهبانى هذه الأمة ، مقيم هناك بالكوفة ، يعيش عيشة البسطاء الوُدعاء ، ويعبد ربه عبادة القديسين الأولياء ، ويحمل مسئوليات دولته وأمته فى مثل عزم الأنبياء . .

ولقد دخلت جميع الأقطار المسلمة فى بيعته ، عدا الشام ، فقد كانت بها دنيا هائلة من المؤمرات تتحرَّك ضده ، وتتهيأ لفرض القتال عليه . . ! !

معاوية بالشام ، يحض الناس على سَبِّ الإمام وشَتْمه . .

والإمام بالكوفة ، ينهى فى حسمٍ وقوة عن شَتْم معاوية . ويقول لأصحابه :

[. . . قولوا : اللهم احقِنْ دماءنا
ودماءهم ، وأصْلِحْ ذات بَيْننـــا
وبيْنهم] . . ! !

معاوية بالشام ، بين القصور الباذخة ، والمطاعم الرافهة ، والأموال التى تأتى بغير حساب ، وتُنفق فى خدمة طموحه بغـير حساب .

و « علىٌّ » بالكوفة ، يلبس قميصاً بثلاثة دراهم ، ويأكل الطعام الجَشِبَ اليابِس ، ويوزع أموال المسلمين على المسلمين فى عدالة لا تعرف الميْل ، وفى ورع لا يعرف الهوى ! !

* * *

وأخذت وفود المسلمين تغدو وتروح بين الإمام فى العراق ، ومعاوية فى الشام .

منهم من يبحث عن الحق ليهتدى إليه ويقف إلى جانبه . .

ومنهم من يبحث عن المغنَم الأكثر ، والفرصة الأحسن .

كانت الشام تسخو بالأمانىّ والوعود كما كانت تسخو بالأموال والعطايا . .

وكان العراق يهتف بكلمة واحدة :

[مَنِ اهْتَدَى ، فإنَّما يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ

وَمَنْ ضَلَّ ، فإنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا]

وبعد هذا ، لا أمانىَّ ولا وعود . . لا رشوة . . ولا مغامرة بأموال الأمة – كما يفعل خُصومه – مهما تكن المخاطر والعواقب .

وحين يقترب من الإمام بعض أصحابه ، يرجونه أن يتألَّف ببعض المال هؤلاء الذين يستهويهم معاوية بأعطياته الغامرة ، يصيح بهم الإمام :

[أتأمرونى أن أطلب النصر بالجور] ؟

إيه يا تلميذ محمد ! !

إيه يا ابن عم الرسول ! !

مَن سواك فى هذا المقام يستطيع أن يأخذ موقفك هذا ، ويقول كلماتك هذه ؟ !

ويقف – معاوية – وسط الوفود الزائرة ، يخطبهم تحت قميص عثمان ، فيتهم الإمام بالتحريض على قتله وإيواء قتلته . .

ويقف الإمام فى العراق يخطب الوفود الزائرة فيلخص القضية كلها فى كلمات تناهت فى الصدق والوضوح وعفة المقال :

[. أما بعد ، فإن الله بعَث نبيه صلى الله عليه وسلم ، فأنقذ به من الضلالة ، وحفظ به من الهلكة ، وجمع به بعد الفُرقة ، ثم قبضه الله إليه وقد أدَّى ما عليه . .

« ثم استخلف الناس أبا بكر . .

« ثم استخلف أبو بكر عمر . .

« ولقد أحْسَنَا السِّيرة ، وعدَلا فى الأمـــة . .

« وقد وجَدْنا عليهما أَن تولَّيا الأمر دوننا ونحن آل الرسول وأحق بالأمر . ولكنا غفرنا ذلك لهما . .

« ثم وَلِىَ أمرَ الناس عثمان ؛ فعمل بأشياء علبها الناس عليه ، فسار إليه ناس فقتلوه ، ثم جاءنى الناس وأنا معتزل أمرهم ، فقالوا لى : بايِع ، فأبيتُ عليهم . .

« ثم عادوا فقالوا لى : بايع ، فإن الأمة لا ترضى إلا بك ، وإنا نخاف إن لم تفعل أن يفترق النـــاس ، فبايَعْتُهم .

« فلم يَرُعْنِى إلا شِقاق رجلين قد بايعانى — يقصد طلحة والزبير — « وخلافُ معاوية إيّاى . . هـــذا الذى لم يجعل الله له سابقة فى الدين ، ولا سلَفَ صدْقٍ فى الإسلام . . طليق بن طليق . . دخلا فى الإسلام كارِهَيْن مُكْرَهَين .

– يعنى معاوية وأبا سفيان –
« إنى أدعوكم إلى كتاب الله ، وسُنَّة نبيكم .
« أقول قولى هذا ، وأستغفر الله لى ولكم] . . ! !

° ° °

هذه هى القضية ، يعرضها الإمام فى وضوح . .

فلقد أفْلتَ الزمام فعلاً من يد الخليفة الراحل عثمان ، بسبب ثقته المفرطة فى بعض أقربائه من بنى أُمَيَّة الذين لم يُحسنوا قط الارتفاع إلى مستوى مسئولياتهم كبطانة للخليفة ورُعاةٍ للأمة .

ولطالما نصحه الإمام وحذَّره العواقب . .

ولما وقعت الواقعة كان أكثر الناس همًّا وكرْباً . .

وراح يهتف ويصيح :

[اللهم إنى أبرأ إليك من دم عثمان .
اللهم إنى لم أقتُل ، ولم أُمالِئْ .
اللهم العن قتلة عثمان] .

° ° °

ولكن أهل الشام ، ومعظمهم يومئذ من المسلمين الجُدد الذين لم يروا عليًّا ولا يعرفونه ، رانتْ على أفئدتهم دعوى معاوية . . ولم يجدوا هناكَ من ينبئهم بحقائق الأمور .

لم يجدوا مَن يقول لهم : إن قتل عثمان جريمة لا تصدر عن دين

« عَلِيٌّ » ولا عن خُلُقه . .

لم يجدوا من يقول لهم : إن « عليًّا » كان « مُحدَّد الإقامة » فى المدينة ، وإن الثوار جاءوا من بلاد شتَّى ونائية . . فمتى اجتمع بهم فى بلادهم ؟ ومتى أخرجهم منها للثورة . . ؟ ومتى حرَّضهم على القتل . . ؟

لم يجدوا من يقول لهم : إن « عليًّا » لم يكن يملك أية قوة يستطيع بها مواجهة عشرة آلاف ثائر ، رابطوا فى المدينة وحاصروها . .

وبرغم ذلك ، فقد استعان عليهم بمنطقه الأخَّاذ ، وحجته المقنعة حتى استجابوا لنُصحه بمغادرة المدينة والرجوع إلى بلادهم . ولقد غادروا المدينة فعلاً عائدين إلى أمصارهم ، لولا أن صادفوا فى الطريق رسولاً يحمل كتاباً زوَّره « مروان بن الحكم » على الخليفة ، ومَهره بخاتمه من غير أن يعلم . . وكان الكتاب أمراً بقتل زعماء الثوار جميعاً . . وكان — مروان — آنئذ بمثابة رئيس ديوان الخلافة ، فعاد الثوار إلى المدينة أشد غيظاً وعُدواناً !

أجل . . لم يجد أهل الشام مَن يقول لهم ذلك ؛ ولا مَن يقول لهم : إنه عندما أحكم الثوار الحصار حول دار « عثمان » ومنعوا عنه الماء ذهب « على » بنفسه يحمل قربة ماء على كاهله ، ولما حاولوا منعه صرخ فيهم قائلاً :

« والله إن الكفار من فارس والروم
لا يفعلون فعلكم . .
« إنهم لَيَـأسِرون أعـداءهم ،
فيطعمونهم ، ويسقونهم » . . ! !

وناوَشهم وناوشوه ، حتى سقطت عمامته على الأرض ، وهو لا يبالى إلا بأن يبلغ بالماء « عثمان » ولقد فعل وأوصل قربة الماء إليه . .

لم يجد أهل الشام من يقول لهم : إن « الإمام » دعا ولديه وُقرَّة عينيه – الحسن والحسين – وأعطى كلا منهما سيفه ، وأمرهما أن يقفا حول سرير « الخليفة عثمان » وهو يرى الحصار الرهيب حول الدار ، ويدرك أنه يقدم ولديه للموت لا محالة . . ! !

لم يجدوا من يقول لهم : إنه عندما عاد « الحسن والحسين » يخبرانه بمقتل الخليفة فعل بهما ما لم يفعل بهما طوال حياته . إذ عنفهما تعنيفاً شديداً ، وعجب لهما : كيف قُتل « عثمان » وهما لا يزالان يحملان رأسيهما على أكتافهما . .

« إذا لم تستطيعا أن تمنعا عنه ،
فكان عليكما أن تموتا دونه » . . ! !

لم يجد أهل الشام من يقول لهم : إن « عليًّا » كان يرى الأخطاء الجسيمة . . وكان يؤلمه ويفزعه تسامح الخليفة تجاهها . . ولكنه لم يكن ليرى اغتيال الخليفة – علاجاً أيًّا كان هذا الخليفة – فما بالكم والخليفة المقتول أخوه فى الله ، وزميله فى الغزوات والمشاهد ، مُجهِّز جيش العُسْرة بخالص ماله ، وصهره – عديلُه – إذ كان كل منهما – على وعثمان – زوجاً لبعض بنات رسول الله . . ! !

لم يجد أهل الشام من يقول لهم ذلك ، ولا شيئاً من ذلك .

لم يجدوا إلا « قميص عثمان » وكان بعض المسلمين قد حصل عليه ، وحمله إلى معاوية بالشام ، حيث رفعه عالياً ، وحشد تحته خمسين ألفاً

يلوِّحون بسيوفهم ورماحهم ، ويصيحون ! يا لَثاراتِ عثمان ! !

* * *

تُرى لو لم يتبوَّأ « على » منصب الخلافة ، أكان معاوية سيحمله دَمَ عثمان . . ؟

كلا . . وإنما كان سيتجه باتهامه إلى الخليفة الآخر . إلا إذا كان ممن يرضى عنهم معاوية ويطمع فى طَيِّهم تحت جناحيه .

لقد كان معاوية من الذكاء بحيث أدرك مصيره مع « على » وقد أصبح خليفة للمسلمين .

من أجل هذا قرر أن يخوض معركة المصير . . مصيره هو . . لا مصير حق ضائع ، ولا مصير عدالة مغموطة ، ولا مصير دمٍ مطلول . . !

ومرة ثالثة ، يغفر الله لمعاوية ، فما كان ينبغى له أن يستخفَّ بمصاير الإسلام وبمقاديره إلى هذا المدى ، وإلى تلك الغاية . .

* * *

قلت لكم : إننا نؤرخ للعظمة الإنسانية فى نماذجها الباهرة .

وها أنتم أولاء تشاهدون عظمة « على » فى غمرة ذلك الصراع .

رأيتموها من غير أن أقول لكم : انظروها . . ! !

ورأيتم نضاله النبيل والمستميت ليدرأ الخطر عن حياة ، كان يراها حياته . . وعن مصير ، كان يراه مصيره . .

فلنتابع رؤية بعض مشاهد عظمته ، إن لم نستطع متابعتها جميعاً .

* * *

لقد كان يعرف حقيقة دوافع معاوية وحوافزه . . ولقد وصف هُتافه بدم عثمان وصفاً بليغاً وجامعاً فقال :

[كلمةُ حَقٍّ ، أُريدَ بها باطل] .

ومع علمه بتلك الدوافع المريبة ، لم يألُ جُهداً فى تجنيب المسلمين ويلات الحرب الأهلية ، فرضى وهو يعلم حقيقة دوافع معاوية أن يناقشه ويجرى معه حواراً طويلاً لعلَّه يثوب ويرجع .

أرسل إليه ينبئه أن دم عثمان لن يذهب هدراً ، وسينم القصاص الذى تفرضه الشريعة فى وقته المعلوم . .

ذلك لأن مقتل الخليفة ، لم يتمثل فى تسلُّل اثنين ، أو ثلاثة ، أو عشرة ، حيث اغتالوه خفية وهربوا . . بل وقع الاعتداء على حياته وسط ثورة مُسلحة اشترك فيها عشرة آلاف ظلوا محتلين المدينة ومحاصريها أربعة أشهر ، لم يستطع معاوية خلالها أن يُرسل من جيشه الكبير المنظم فرقة أو فرقتين لتزجر الثوار ، وتنقذ الخليفة .

وهذه الآلاف العشرة من الثوار لا يزالون يحملون السلاح .

فكيف يقدر « الإمام » أن يمسك بهؤلاء جميعاً ليحاكمهم . . ومتى ؟ فى تلك الظروف التى مكنت للفوضى وللدمار شرَّ تمكين .

فهلاَّ أعطاه معاوية الفرصة ، فبايعه ووقف إلى جانبه بجيشه اللَّجب ليتمكن من انتزاع القتلة الحقيقيين من بين هذه الآلاف العشرة الذين كانوا يحمونهم ويمنعونهم ؟ !

لو فعل « معاوية » ذلك . . ثم قصَّر الإمام وأغمض عن القتلة عينيه ، لأدان ساعتئذ نفسه ، ولأدانه المسلمون . .

لكن معاوية ، لأمرٍ فى نفسه ، راح يرفض كل محاولة للتفاهم والصلح ، معلقاً على ذلك على تسليم قتلة « عثمان » . . وهو يعلم نبأ تلك الواقعة المشهورة . . عندما توسط بعض أهل الخير عند على ، لتسليم قتلة عثمان ، وبينما هم يتفاوضون معه إذا عشرة آلاف مقاتل يحاصرون المكان الذى كان الحديث يجرى فيه بين الإمام والوُسطاء .

وإذا هذه الآلاف العشرة تزلزل الأفق بصياحها (كلنا قتلة عثمان) ! !

عشرة آلاف – سيوفهم بأيديهم ، وحناجرهم تدمدم (كلنا قتلة عثمان) .

ثم يقول معاوية للإمام : لا صلح إلا بعد أن تسلمنى قتلة عثمان ! !

ولماذا يتسلَّم هو قتلة عثمان ؟

أهو وَلِىُّ الدم . . ؟ كلا ، فأبناء عثمان أحق منه بهذه الولاية ؟

وحتى لو كان ولىَّ الدم ، أيظن نفسه لا يزال يعيش فى النظام القَبَلى ، يُقتل القتيل ، فتأخذ قبيلته الثأر أو الدية . . ؟

أَوَ لا يعلم – أمير الشام – أنه يعيش فى دولة عظمى ، وهى وحدها المسئولة عن فرض كلمة القانون . . ؟

الواضح أن « معاوية » بصياحه ذاك لم يكن يريد سوى إحراج الإمام وتأليب الثوار عليه .

لم يَكفِه منهم أنهم قتلة عثمان . . فحاول أن يجعل منهم قتلة « على » أيضاً . . ! !

* * *

ولكن الرجل العظيم « علياً » سيظل يتصرف وفق فضائله . . وها هو ذا

ينشد السلام مرة أخرى ؛ بل مرات ومرات .

أرسل إلى معاوية « جرير بن عبد الله » بكتاب منه .

وسافر « جرير » إلى الشام ، واجتمع بمعاوية ، وبعض أصحابه حوله ، سأله معاوية : ما وراءك ؟

فقال جرير :

[لقد اجتمع لعلى أهل الحَرمين - مكة والمدينة - وأهل المِصْرَين - البصرة والكوفة - وأهل الحجاز واهل اليمن ، وأهل مصر ، وأهل عمان ، وأهل البحرين واليمامة . .

« ولم يبق إلا أهل هذه الحصون التى أنت فيها - الشام .

« لو سال عليها سيل من أوديته لأغرقها . .

« وقد أتيتك أدعوك إلى ما يرشدك ويهديك] . .

ودفع إليه كتاب الإمام ، فانظروا ماذا قال فى كتابه الرجل الذى ينشد السلام بكل طاقته وعزمه .

بسم الله الرحمن الرحيم

[أما بعد ، فإن بيعتى بالمدينة ، لَزمتْك وأنت بالشام ؛ لأنه بايعنى

القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان فلم يكن للشاهد أن يختـــار ، ولا للغائب أن يَرُدّ . . وإنما الشورَى للمهاجرين والأنصار فإذا اجتمعوا على رجل فسمَّوْه إماماً ، كان ذلك لله رضا .

« فإن خرج من أمرهم خارجٌ بطعن ، أو رغبة ، ردُّوه إلى ما خرج منه ، فإن أَبَى قاتلوه على اتِّباعه غيرَ سبيل المؤمنين .

« وإن طلحة والزبير بايَعانى ، ثم نقضا بَيْعتى ، وكان نَقْضُها كردِّهما فجاهدتهما على ذلك حتى جاء الحق وظهر أمر الله . . فادخل فيما دخل فيه المسلمون ، فإنَّ أَحَبَّ الأمور إلىَّ فيك العافية ! !

« إلا أن تتعرض للبلاء ، فإن تعرضت له قاتلتك واستعنت بالله عليك .

« وقد أكثرتَ فى قتلة عثمان فادخل فيما دخل فيه المسلمون ، ثم حاكِم

القوم إلىَّ أحْمِلْك وإياهم كتاب الله .
أما تلك التى تريدها فخدعة الصبى عن اللبن . . ! !
« ولَعمرى ، لئن نظرتَ بعقلك دون هواك لتجدنِّى أبرأ النـــاس من دم عثمان . .
« واعلم أنك من الطُّلَقاء (١) الذين لا يتَبَوَّءون الخلافة ، ولا تُعرَض فيهم الشورَى .
« وقد أرسلتُ إليك وإلى مَن قِبلك جرير بن عبد الله ، وهو من أهل الإيمان والهجرة ، فبايع . . ولا قوة إلا بالله] ! !

* * *

هذا هو كتاب الإمام ، كما ينقله لنا نصر بن مُزاحم فى كتابه « وقعة صِفِّين » .

فهل ثمةَ منطق أعدل ، وأمثل من هذا المنطق . .

لننظر قوله لمعاوية ؟

[إنَّ أحبَّ الأمور إلىَّ فيك العافية]

---

(١) الطلقاء هم كفار قريش الذين خلى رسول الله سبيلهم يوم فتح مكة قائلاً لهم « اذهبوا فأنتم الطلقاء » ثم أسلموا يومها ، وبعدها .

ولننظر قوله له :

[وأما قتلةُ عثمان ، فادخل فيما دخل فيه المسلمون – أى البيعة للإمام – ثم حاكم القوم إلىَّ ، أحملك وإياهم على كتاب الله] . . !

إن معاوية برغم تمرده ، ونكوصه عن البيعة ، وتأليبه الناس على الخليفة ، ودعوتهم لحربه .

معاوية ، برغم هذا كله ، يعرض عليه الإمام أن يكون « المدعى العام » فى قضية عثمان . . ! !

أفوراء ذلك نَصَفَةٌ ومَعْدَلة . . ؟

أَوَ بعد ذلك تنازُل وتسامح . . ؟

لكن « معاوية » كان قد بيَّت الأمر مع معاونيه ، فكان رده على هذه الرسالة إمعاناً فى اتهام الخليفة بقتل عثمان ، وإيغالاً فى جمع الحشود المسلحة من أهل الشام تحت قميص عثمان . . !

كان بالمدينة جماعة من المهاجرين والأنصار آثروا الحياد . . وكان على رأسهم نفر من أئمة الصحابة أمثال عبد الله بن عمر . . وأسامة ابن زيد . . وسعد بن أبى وقاص . . ومحمد بن مسلمة . .

وعندما هَمَّ الإمام بالخروج إلى البصرة قبل موقعة الجمل التى إليها دعاهم للخروج معه . . فاعتذروا . . وكانت حجتهم أن الله أمرهم بقتال المشركين ، أما والقتال اليوم سيدور بين مُسلم ومسلم ، فإنهم فيه لا يشتركون .

وآلم هذا الموقف بعض أصحاب « على » فطلبوا منه أن يحملهم على الخروج معه بالقوة . لكنه أبى واحترم حيادهم وقال :

[دَعوهم ، وما اختاروا لأنفسهم] .

لم يكن امتناع هؤلاء الصفوة عن غَمْطٍ لحق « عَلِيّ » أو لفضله . . وإنما كان للسبب الذى قدمنا .

قال سعد بن أبى وقاص :

[أعطِنى سيفاً إن ضربتُ به المشرك قَطعَ ، وإن ضربتُ به المسلم رجعَ ، وأنا أُقاتل معك] . .

وقال عبد الله بن عمر :

[إنى عاهدت ربى ألا أقاتل من يشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله] .

وقال أسامة بن زيد :

[والله يا أمير المؤمنين ، لو كُنتَ فى شِدْق الأسد ، لأحببتُ أن أكون معك فيه ، ولكنى لا أحب أن ألقى بسيفى مسلماً أبداً] . .

احترم الخليفة حياد إخوانه هؤلاء ، ولم يُحلْ بينهم وبين ما اختاروه لأنفسهم من مَسْلك ومُقام .

لكن « معاوية » فى الشام ، لم يكفه ما أعدَّ هناك من قوة ، فطمع

فى أن يكسب هؤلاء إلى صَفِّه ، وحسب أنهم قعدوا عن نصرة « الإمام » استرابةً منهم فى حقه أو فى سلامة قصده .

فأرسل إليهم رسله يغريهم بالوقوف بجانبه ، ويقول لهم : أنتم أحق بالخلافة من على . . ! !

أرسل إلى سعد ، وإلى عبد الله بن عمر ، وإلى محمد بن مَسلمة .

وسرعان ما تلقى « معاوية » منهم لطمات جعلته يندم على ما فعل .

أما « عبد الله بن عمر » فقد أرسل إليه يقول :

[أما بعد ، فإن الرأى الذى أطمعكَ فىَّ ، هو الذى صيَّرك إلى ما صيَّرك إليـه . .

« إنى ما تخلَّفت عن — على — لطعنٍ منى عليه . فَلَعَمرى ما أنا كعَلىٍّ فى الإيمان والهجرة ، ومكانه من رسول الله صلى الله عليـه وسـلم ونِكايَتِه بالمشركين . .

« ولكن حدث أمر لم يكن لى فيه من رسول الله عهد ، ففزعتُ فيه إلى الحيدة ، فاكففْ عنا نفسك] ! !

وأما سعد بن أبى وقاص » فقد ردَّ عليه قائلاً :

[. . وإن هـذا أمر قد كرِهْنـا أوَّله ، وكَرِهْنـا آخره . . وأمـا

طلحة والزبير ، فلو لزما بيوتهما لكان
خيراً لهما — واللهُ يغفر لأم المؤمنين
ما أتَتْ . . وما كنت لأقاتل عليًّا ،
وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه
وسلم يقول له أنت منى بمنزلة هارون
من موسى ، غير أنه لا نبى بعدى] .

وأما « محمد بن مسلمة » فقد كتب إلى معاوية يقول :

[. . وأما أنت ، فلَعمْرِى ما طلبتَ
إلا الدنيا ، ولا اتَّبعْتَ إلا الهوى .
فإن تَنْصُرْ عثمان مَيتـاً ، فقد
خَذَلْتَهُ حيًّا . .
« ولئن كنتُ أبصرتُ فى الأمـر
خلاف ما تريد ، فما خرجت بذلك
من نعمة ، ولا صرْتُ إلى شك . .
« وإنى لأدْرَى بالصواب منك] . ! !

* * *

كان من الخير لمعاوية أن يفيق على أصوات هؤلاء الثلاثة الكبار من أصحاب رسول الله . . ولكنه أخفى رسائلهم هذه ومضى فى الطريق الذى اختار ، والذى رفع فوق ناصيته قميص عثمان ! !

* * *

أدرك « الإمام على » أن معاوية مَزْهُوٌّ بجيشه ، وبقوة أهل الشام

الملتفين حوله ، كما أنه لا يقدرُ قوة الإمام قدرَها .

ورأى الإمام أنه إذا أنزل بمعاوية بعض بأسه ، وأراه بعض قوته ، فقد يحمله ذلك على الطاعة . .

ومن ثمَّ رأى أن يزحف إلى الشام ، ويُصبِّح معاوية بصيحة عابرة ، لكنها زاجرة . . ثم يستأنف الإمام بعدها دعوته إلى الصلح وإلى السلام . .

* * *

غادر الإمام معسكر النُّخَيْلة بالكوفة . . وغادر معاوية الشام والتقى الجمعان فى « صفِّين » .

وتُفاجئنا الساعات الأولى لهذا اللقاء بمشهد باهر من مشاهد « ابن أبى طالب » . . مشاهد عظمة نفسه وبطولة أخلاقه .

فعندما بلغ معاوية وجيشه « صِفِّين » شرقىَّ الفرات ، بادروا إلى الطريق الوحيد الذى يفضى إلى نهر الفرات فاحتلوه ، وأقاموا عليه عشرة آلاف حارس ، ليمنعوا جيش « الإمام » من الوصول إلى الماء ! ! ! !

ولما وصل « الإمام » بجيشه وعسكروا فى ذات المكان ، انطلق سقَّاءوهم ليجيئوا لهم بالماء فوجدوا جيش الشام قد احتل الطريق كله .

وأرسل الإمام لمعاوية ، يذكره بشرف القتال . . ويدعوه أن يترك طريق الماء مفتوحاً أمام الظامئين . . لكن معاوية ومن أشاروا عليه رفضوا .

وقضى أصحاب « الإمام » يوماً وليلة بلا ماء . وجفَّت حلوقهم وأشرف الضعاف منهم على الموت .

وفى الصباح تحركت قوة من جيش أمير المؤمنين ، يقودها الأشعث ابن قيس ، والأشْتر ، فكنَست قوات معاوية كَنْساً من طريق الماء ، واحتلته كله . . وأصبح مفتوحاً أمام جيش الإمام ، ومغلقاً تماماً أمـــام جيش معاوية . . ! !

ولْنُصْغ لهذا الحوار الذى دار بين معاوية وعمرو بن العاص بعد طرد قواتهما عن طريق الماء :

عمرو : ما ظنك بالقوم اليوم – يا معاوية – إن منعوك الماء كما منعتهم بالأمس . . ؟ !

معاوية : دع عنك ما كان – يا عمرو – ولكن أتظن عليًّا يصنعها . . ؟

عمرو : ما أظن « عليًّا » يَسْتحِلُّ منك ما استحلَلْتَ منه ؛ فإنه لم يأت لِيُظْمِئك ، بل جاء لغير ذلك .

* * *

حَسبُ أمير المؤمنين ذلك الحوار يجرى بين خصومه .

حسبُه ذلك الرأى فى رجولته ، وعظمته ورفْعَةِ مَسْلَكِهِ من الذين يتهمونه بدم عثمان ! !

ولقد كان أول أمر أصدره « الخليفة على » فور احتلال قواته طريق الماء ألا يُذاد عنه ذاهب ، ولا يمنع عنه شارب . . وهكذا لم يذق جيش معاوية حرقة الظمأ لحظة واحدة ، لأن « عليًّا » بعظمته وبرجولته كان هناك . . ! !

* * *

بعد هذه الزجرة الرادعة ، حاول الإمام أن يلوى زمام « معاوية » عن الحرب ، ويهيئ له فرصة كريمة للمصالحة ، فندب للقائه أربعة من رجاله توجهوا إلى معسكر معاوية ، وتحدثوا إليه قائلين له :

[إن صاحِبنا لمَنْ قد عرفْتَ وعرف المسلمون فضله ، ولا نظنه يخفى عليك « إن أهل الدين والفضل لن يعدلوا بعلى عليه السلام . ولن يُفاضِلوا بينك وبينه . فاتق الله يا معاوية ، ولا تخالف – عليًّا – فإننـا والله ما رأينا رجلاً قط أعملَ بالتقوى . ولا أزهدَ فى الدنيا : ولا أجمعَ لخصال الخير كلها منه] . .

أفلا يلين قلب معاوية بعد هذا كله . . ؟

انظروا ماذا كان جوابه :

[إن صاحبكم قتَل خليفتنا ، وفرَّق جماعتنا ، وآوى ثارنا وقتلَتنا . . « وصاحبكم يزعم أنه لم يقتله . ونحن لا نردُّ ذلك عليه . فليدفع إلينا قتلة عثمان فنقتلهم به ، ونحن نجيبكم إلى الطاعة والجماعة] . .

عد الوفد إلى الإمام ، يحملون إليه كلمات معاوية فتلقاها الإمام

فى أسى . ثم تلا قول الله تعالى :

[فإنَّكَ لا تُسْمِعُ الموْتَى ، ولا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ .
« ومَا أنْتَ بِهَـادِى الْعُمْىِ عَنْ ضَلاَلَتِهِمْ إنْ تُسْمِعُ إلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ] . .

وإذ كانوا يومئذ فى شهر المحرم ، وهو من الأشهر الحرُم التى لا يحلُّ فيها القتال ، فقد انتظر أمير المؤمنين حتى أهلَّ شهر صفر ، فاتخذ قراره بخوض القتال . .

وكان بعض المقاتلين معه يريد أن يدهَم جيش معاوية بقوات كثيرة تأخذهم على حين غفلة ، فأبى البطل ، والرجل .

وعند غروب شمس ذلك اليوم أمر جماعة من أصحابه أن يقفوا على معسكر معاوية ، وينادوا بأن القتال غداً . .

ودعا « مرثد بن الحارث » وأمره أن يعلُو أقرب ربوة من معسكر معاوية ، ويسمعهم هذه الكلمات :

[يا أهل الشام . .
« إن أمير المؤمنين يقول لكم :
إنى قد استدَمْتُكم وأستأنيْتُ بكم لتراجعوا الحق وتُثيبوا إليه ، واحتجَجْتُ عليكم بكتاب الله ودعوتكم إليه ، فلم تتناهَوْا عن طغيان ، ولم تُجيبوا إلى حق

« و إنِّى قَدْ نَبَذْتُ إليكم على سواء ،
إن الله لا يُحب الخائنين] . ! !

أبى أن يأخذهم على غرَّة ، وأن يوجه إليهم ضربة خاطفة ، كانت ستوفر كثيراً من الوقت والجهد فى كسب المعركة .

أبى ذلك ، لأنه كان يرجو ويطمع فى السلام إلى آخر لحظة ، فهو لهذا يرجو ويطمع إذا آذنهم بقتال أن يثوبوا إلى الرشد ، ويرجعوا عن العصيان .

وأباه أيضاً ، لأن أخلاقه ترفض هذا النوع من الغلب والنصر مهما يكن سريعاً وحاسماً .

ولسوف نراه يمارس الصراع كله مع معاوية على هذا النسق من الخُلق الرفيع .

لا يتخلَّى عن مُثله ولا عن دينه مهما تكن العواقب . .

ولم تكن جبهة خصومه مجتمعة ، بأقدر منه ذكاء وفطنة . لكنه رضى الله عنه ، رفض دائماً أن يضع الذكاء مكان الإخلاص والورَع .

ولقد أخبر وكان صادقاً ، بأنه إذا انتصر عليه معاوية ، فإنه لن ينتصر بمقدرته ولا بشجاعته ولا بذكائه . . إنمـا سينتصر بورَع الإمام نفسه . .

أجَلْ . . فإن ترفُّعه عن الوسائل التى يرفضها دينهُ وخلُقه ، هيَّأ لمعاوية الكثير من أسباب انتصاره .

* * *

آذنهم « الإمام » بالقتال إذن ، على النحو الذى أسلفنـا ، وعاد

يُعَبِّئ قواته ، وأصدر إليها توجيهاته فى القتال .

[لا تقاتلوا القـــوم حتى يبدءُوكم ؛
فإنكم بحمـــد الله على حُجَّـــة . .
« وتركُكُم إيـــاهم حتى يبدءُوكم
حُجةٌ أُخرى لكم عليهم . .
« فإذا قاتلتموهم فهزمتموهم ، فلا تقتلوا
مُدْبراً ، ولا تجهزُوا على جريح ،
ولا تكشفوا عورة ، ولا تُمثِّـلوا
بقتيل . .
« فإذا وصلتم إلى رحالهم ، فلا تهتكوا
ستراً ، ولا تدخلوا داراً إلا بإذن ،
ولا تأخذوا من أموالهم شيئاً . .
« ولا تقربوا النساء بأذى . وإن
شتمنكُم وَشتمنَ أمراءكم وصُلحاءكم ،
« واذكُروا اللهَ كَثِيراً لعلَّكُم تُفْلِحُون]

* * *

والْتقى الجيشان فى وقعة صِفِّين . ودارت المعارك ضارية مُثيرة وطالت واستطالت حتى عجّت الأرض بالدماء ، وغطتها جثث الضحايا .

وجزع الإمام لكثرة الضحايا . . وفى سبيل أن يحسم الأمر ، ويصون الدم ، تقدم فوق جواده من صفوف معاوية وناداه ، ليخرج إليه فما خرج . . فلما فرغ من قتال ذلك اليوم كتب إليه كتاباً بعث به إليه :

[يا معاوية . .
« لِمَ تقتل الناس بيني وبينك ؟
ابْرُزْ إليَّ ، فأيُّنا قتَل صاحبه تولَّى
الأمر من بعده] . .

واستشار معاوية صديقه « عمرو » فقال له :

– لقد أنصفك الرجل فابرز إليه .

فأغضبته مشورة « عمرو » ووجد فيها إحدى مكايده للتخلص منه ؛ لأنه يعلم أن « عليًّا » ما بارز أحداً إلا صرعه ! !

ولكى يبعد « عمرو » هذا الخاطر المزعج عن معاوية ، قال له :

– إنى خارج إلى « على » غداً ، فمُبارزُه .

وفى اليوم التالى ، وقد تأهب كِلاَ الجيشين لاستئناف القتال ، وقف « عمرو » ونادى « الإمام عليًّا » لمبارزته . . وخرج الإمام إليه ، وتبارزا وهما فوق فرسيهما ، وبينما الإمام يهوى بسيفه على « عمرو » ليجلِّله به قذف بنفسه على الأرض ، وتمدَّد عليها فى استسلام ، وفزع ، وضراعة . . فألقى عليه « الإمام » نظرة الظافر الكريم ، ورجع عنه لم يصنع به شيئاً . .

* * *

ولو حفظ « عمرو » للإمام هذا الصنيع الجليل ، وتخلَّى عن شغفه البالغ بالإمارة ، لأخذت مسيرة الصراع وجهة أخرى . . لكنه لم يفعل ، وحين أنهك القتال جيش الشام ، وبات النصر مؤكداً لجيش الإمام . . وصار واضحاً أنه لم يبق سوى ساعة أو بعض ساعة ؛ ثم ينتهى إلى الأبد

تمرد معـاوية ومن معه . . عندئذ ، ومعاوية يقرع سِنَّ نادم ، ويُحدِّق فى وجه « عمرو » يستجديه الرأى والحيلة ، فتح « ابن العاص » جعبته ليخرج منها جديداً . .

قال لمعاوية :

[لقد أعددتُ بحيلتى أمراً ادَّخرتُه لهذا اليوم .

« ترفع المصاحف . وتدعو إلى تحكيم القرآن . .

« فإن قبلوا التحكيم اختلفوا . : وإن ردوه اختلفوا أيضاً] . !

أجل . . فإن التحكيم بهذه الطريقة وفى تلك الظروف ، لا يثير خلافاً فى صفوف المنهزمين ، لأنه – على الأقل – يعطيهم فرصة لجمع صفوفهم وبناء قوتهم من جديد . . أما بين المنتصرين الذين لا يفصل بينهم وبين النصر سوى ساعة زمان ، فإنه يثير اختلافاً كبيراً . .

وهذا هو الذى حدث تماماً . .

فما كادت طلائع معاوية ترفع المصاحف ، وتسير بها صَوبَ معسكر العراق ، حتى نَشب الخلاف .

لقد أدرك الإمام من فوره أنها خُدعة ، فحذر قومه منها . . لكنّ – الأشعث بن قيس – ونفراً من القرَّاء راحوا يقنعون الناس بضرورة الاحتكام إلى كتاب الله :

قال الإمام :

[أنا أحق مَن يجيب إلى كتاب الله ،
ولكنى أعرف بهم منكم . .
« إنها كلمة حق يُراد بها باطل . .
وإنى ما قاتلتُهم إلا ليدينوا بحكم
القرآن ، فكيف أرفُض اليوم حكمه . .؟
« إن القوم لم يرفعوا المصاحف لأنهم
يريدون حكم القرآن .
« إنما هى الخديعة ، والوهن والمكيدة
« فأعيرونى سواعدكم ساعة واحدة
فقد بلغ الحقُّ مقْطعَه] ! !

لكن المعارضة بلغت أوْجها فى سرعة مُريبة ، وتولَّى « الأشعث » كِبْرَها . .

كان « الأشْتر » بكتيبته وبقواته هناك على مقربة من معسكر الشام المتداعى . . وكان يستعد للصيحة الأخيرة عليه ، ولم يكن يفصل بينه وبينهم سوى [عَدْوَة فرَس] على حد تعبيره . . فطلب الأشعث ومَن معه من الإمام أن يُرسل لاستدعائه . . وأرسل الإمام يستدعيه ، فجنَّ جنون « الأشتر » وقال للرسول :

[ارجع وأنبئهم أنها لحظات ، وينتهى كل شىء ، فكيف أعود] ؟

ولم يكد يسمع أنصار التحكيم ردَّ « الأشتر » هذا حتى هدّدوا بعملٍ مُسلَّح ضد الإمام نفسه إذا لم يعد « الأشتر » على الفور ! !

ماذا دهى هؤلاء فجأة . . ؟

وماذا دهى « الأشعث » خاصة ؟

هل أنهكته الحرب . . ؟

هل كان يعمل لحساب نفسه ، أم لحساب غيره ، وَفْق أغراضٍ بعيدة عن القضية التى يقاتل دُونها الإمام . . ؟

هل كان ينفس على « الأشتر » ويُضمر له فى نفسه الحسد ، فعزَّ عليه أن يكون بطل الضربة الأخيرة ، وطليعة الفتح ، وبشير النصر ؟

أو تُراه كان يرى أن الحرب لن تنتهى بهذه السرعة المظنونة . وأن الصلح المعروض فرصة لا ينبغى أن تُفلت . ؟ ؟

بعض ذلك جائز . . وكل ذلك جائز . . وعلى أية حال فقد فرضوا رأيهم بقبول التحكيم ، وعاد الأشتر تاركاً أبواب معسكر الشام التى كان يقف عليها متهيأ لإنزال الضربة الأخيرة بمن وراءها . . عاد يتضرَّم غيظاً وثورة ! !

* * *

كُتبت وثيقة التحكيم ، وأعلن معاوية أن ممثله فى التحكيم هو « عمرو بن العاص » . . ! !

فمن يُمثل جبهة الإمام . . ؟

هنا برز « الأشعث » وجماعة أخرى يقترحون « أبا موسى الأشعرى » وعارض الإمام . . مقترحاً « عبدالله بن عباس » .

لم يكن دين أبى موسى موضع شكٍّ لدَى « أمير المؤمنين على » برغم مآخذ يأخذها على موقفه من ذلك النزاع بينه وبين معاوية . . إنما كان الموقف فى تقدير الإمام يتطلب مندوباً يكون فى دهائه وسعة حيلته ، ويقظته ،

كفئاً للداهية عمرو بن العاص .

و « ابنُ عباس » كما يعرفه الناس جميعاً ، هو ذلك الكفء المطلوب .

إنه مع وَرَعه وتُقاه أبعد مَنالاً ، وأبعـدُ غَوْراً من كل ما لدى « ابن العاص » من حيلة ودهاء .

لكن الأشعث وجماعته أصرُّوا على « أبى موسى الأشعرى » . .

وحتى يتجنب « الإمام » وقوع الفتنة فى صفوفه – قبل رأيهم اليوم فى أمر المندوب ، كما قبله أمس فى أمر التحكيم . . ! !

* * *

وسارت الأمور سيرها المعروف . . فقد اتفق أبو موسى وعمرو بعد حوار طويل بينهما على أن يخلعا معاً ، الإمام ، ومعاوية ، ويعود الأمر شورى بين المسلمين يختارون هم إمامهم وخليفتهم .

ودعا « عمرو » أبا موسى لكى يبدأ الحديث . .

وبدأ « أبو موسى » وخلع عليًّا ، ومعاوية . .

ثم تلاه « عمرو » فقال : (إن أبا موسى خلع صاحبه كما رأيتم ، وإنى أخلعه كما خلَعه – وأُثبِتُ معاوية ، فهو أمير المؤمنين والمطالب بدم عثمان فبايعوه) . . ! ! !

وثار « أبو موسى » لهذه الخدعة المكشوفة ، وانتهى التحكيم بهذه المهزلة ، ليعود القتال ، من جديد ! !

---

(١) راجع للمؤلف : أبو موسى الأشعرى فى كتاب « رجال حول الرسول ».

ولكن ضدَّ مَن سيعود . . ؟

* * *

إن عظمة هذا الرجل – على بن أبى طالب – لعظمة فريدة . . لكأنما كان يُحركه من أعماقه ولعٌ شديد بأن يذهب عن الحياة – يوم يذهب – شهيد مُثُله ، ومبادئه ، وإيمانه . . شهيد استقامة المسلك ، واستقامة القصد ، واستقامة الضمير .

لقد واتته الفرصة لِدَحْض خدعة التحكيم قبل اجتماع الحكمين . .

وذلك حين راح الأشعث بن قيس . . يمرُّ على جماعات الجيش المبثوثة هناك تالياً عليها وثيقة التحكيم ، فإذا جماعة منها تلقاه بصياح النكير . . قائلة : [لقد أخطأنا بقبولنا التحكيم . وها نحن نرجع عن الخطأ ، لا حكم إلا لله] .

ولو تقدم الإمام فتبنَّى – مجرد التبنِّى – هذه المعارضة الجديدة للتحكيم ، لأمكن تغيير الاتجاه ، ولكنه قال عندما بلغه النبأ . .

[. . أوَ بَعدَ أن أُعطينا العهد والميثاق . . ؟ !]

لك الله أبا الحسن ! !

أتُراك قد كتب عليك أن تقاتل بشرف ، فى معركة كان الشرف عنها غائباً ، وفيها غريباً . . ؟ !

رفض أن ينقض ميثاقاً أُعطاه . . والغدر يحيط به من كل جانب . . وجاءت خاتمة التحكيم كما أراد لها وكما تنبأ بها عمرو بن العاص . .

فقد مزَّق الخلاف أصحاب الإمام . وفى سرعة غريبة أيضاً تحولوا

إلى شِيَع يقاتل بعضها بعضاً . . بل تقاتل الإمام نفسه وتواجهـه بألأم عصيـان ! !

* * *

وقف الإمام وسط البقية من أصحابه الذين لم يفتنوا عن الولاء للحق .

لم يكن لديه وقت للعتاب ، ولا لاجترار الندم . إنما كان الوقت كله – إن كان هناك وقت – والفرصة كلها . . إن كان ثمة فرصة . . لتعبئة أصحابه والسير إلى الشام .

مع مَنْ تمضى إلى الشام يا أمير المؤمنين . . ؟

ولماذا . . ؟

مع المؤمنين بالحق وإن قَلُّوا . . لإتمام الجهاد الذى بدأه فى سبيل الحق ذاته . !

إنه صارم فى تحمل مسئولياته . . وإنه حين خاض القتال الذى فرضه عليه الجانب الآخر لم يَخضْهُ لينتصر فى حرب ، أو لِيدْعَمَ مكانه فى الخلافة ، إنما خاضه لأن مسئولياته فرضت عليه أن يخوضه . . ولما فرض أصحابه عليه قبول التحكيم ، كفّ عن القتال . . ولما فشل التحكيم وتحول إلى خدعة وضلالة ، فإن مسئولياته تفرض عليه القتال من جديد .

صحيح أن الموقف تغير تغيراً شـاملاً ، ففريق كبير من أصحابه انقلب عليه وحمل السيف ضده بحجة أنه قبل التحكيم . . ؟ التحكيم الذى فرضوه هم عليه فرضاً . . ! !

وفريق آخر ، اعتزل وتقاعس عن القتال . .

لكن ذلك كله وأضعافه معه لا يهن من عزم الإمام . . ذلك لأنه يعتقد أنه يقاتل فى معركة حق .

وما كانت معارك الحق قط معارك كثرة وأعداد . .

إن عليه أن يمضى مع مسئولياته ، حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً .

وهكذا عبأ قواته ، وبدأ مسيرته إلى الشام ، بيد أنه لم يكد يتحرك مسافراً حتى جاءته الأنباء مثيرة مُزعجة . .

أنباء الخوارج الذين انطلقوا هائمين فى البلاد والقرى يقتلون كل مَن يُخالفهم الرأى .

إنهم يلقون الواحد من المسلمين فيسألونه :

– ألم يكن قبول التحكيم كفراً . . ؟

– ألم يأثم « على » بقبول التحكيم . . ؟

– ألسنا فى حل من طاعته وبيعته حتى يقر بإثمه ويتوب منه . . ؟

فإذا أجاب المسئول بـ « نعم » تركوه ينجو . . وإن أجاب بـ « لا » سفكوا دمه وأزهقوا حياته . . ! !

جاءت أخبارهم إلى الإمام . وأرسل الناس من كل مكان يستغيثون به . ويتوسلون إليه ألا يذهب إلى الشام قبل أن يؤمنهم من هذا الوباء الماحق الذى استشرى فجأة وبغير حساب . . ! ! .

أيعرف الناس فى التاريخ محنة مرَّت ببطل ، مثل هذه المحنة . .

لكن أبو حَسنٍ لها . . ولن يتخلَّى عن واجبه وإن بُدلت الأرض غير الأرض . وإن تحوَّلت رمال الصحراء إلى جيوش تقاتله ، وإن

تحوَّلت بحار الأرض إلى لهب ، ونار . . ! !

لتذهب عنه كل الألقاب والأوصاف – الخليفة . . والإمام . . ، الداهية . . والمنتصر . . ولْيبْقَ له ومعه لقب واحد ووصف واحد هو : المؤمن . . ! !

إن الحياة فى يقينه قضية إيمان . فمن خسر إيمانه خسر حياته ، وإن عاش فيها ألف عام . . ومَنْ ربح إيمانه ربح حياته ، وإن عاش فيها بضعة أعوام . . ! !

وهو اليوم – وليس حوله سوى المهالك والأخطار – غير نادم على خطوة خطاها .

لقد اقترب منه ابنه « الحسَن » رضى الله عنه ، يقول له فى نبرة عتاب :

[يا أبى . .

* « أشرْتُ عليك حين حُوصرَ عثمان
أن تخرج من المدينة :
فإن قُتِل قُتِل وأنت غائب عنها .

* « وأشرْتُ عليك حين قُتل عثمان
وراح الناس إليك وغَدَوْا ، وسألوك
أن تقوم بالأمر ألا تقبله حتى
تأتيك البيعة من جميع الآفاق . .

* « وأشرتُ عليك حين بلغك خروج
الزبير وطلحة بأم المؤمنين عائشة

إلى البصرة أن ترجع إلى المدينة
وتقيم فى بيتك . .
« فلم تقبل رأيى فى شىء من
ذلك] . .

* * *

كان الحسن قلقاً من أجل أبيه . . فراح يراجع مع الماضى الحساب . .

ولكن « أباه » كان مطمئن النفس ، قرير العين بما كان وبما سيكون ، لأنه لم يكن فى رحلة حياته كلها عبد هوًى ، ولا طالب مَجد . بل كان جندياً فى معركة الولاء للحق . .

هنالك أجاب ابنه « الحسن » قائلاً :

* « أمَّا خروجى حين حُوصِر عثمان ، فما كان ذلك ممكناً ، فقد كان الناس أحاطوا بى ، كما أحاطوا بعثمان . .
* « وأما انتظارى طاعةَ جميع الناس من جميع الآفاق ، فإن البيعة لا تكون إلا لمن حَضَر الحرَمين من المهاجرين والأنصار ، فإذا رضوا وبايعوا حقَّ على جميع المسلمين الرضا والبيعة . .

« وأما رجوعى إلى بيتى والقعود فيه
فإننى لو قبلت لكان ذلك غدراً
بالأمة وخيانة لها . . »

هذه هى مواقفه – واضحة مسفرة . .

وهذه هى بواعثه – نظيفة طاهرة . .

لا يأسَى على وقفته مع حق ، قصَّرت عن إدراكه الأسباب . .

ولا يَجزع من قَدَرٍ ، سبقَ به الكتاب . . ! !

* * *

وخِلاَل حياته بصفة عامة . .

ثم خلال هذا الصراع وهذه الفِتن ، بصفة خاصة ، حرص البطل دوماً على تحرى الصواب ، والسير تحت راية الحق .

أجل . . الصَّواب كان هِوايته ، وكان طريقه . .

الصَّواب جميعُه – صواب الفكر ، وصواب الشعور ، وصواب الإرادة ، وصواب العمل .

وحتى إذا أخطأ اجتهاده فى أمر ما ، فإن خطأه هذا لا يجىء انعكاساً لرغبة فى الاستعلاء على الحق أو تحديه . . ولا لتقصير منه فى نُشدان الصواب وتحريه . .

إنما يكون بسبب مبالغته فى الولاء للصواب ، وللحق . . وبسبب مغالبته الظروف العسيرة المظلمة التى كتب عليه أن يستردَّ من خِلالها حقيقة الإسلام ، ووحدة المسلمين . .